أنا وجدي

فائدة بركات

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا 8، مدخل 1
هاتف: 1003288596 (0020)
بريد إلكتروني: dream.pen92@gmail.com

أنا وجدي

فائدة بركات
الطبعة الأولى، القاهرة 2020م
غلاف: عمار جمال العبد
مراجعة، تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
رقم الإيداع: 2873 / 2020
I.S.B.N \ 978-977-6794-12-2

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًّا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

أنا وجدي

فائدة بركات

إهداء

إلى روح جدّي رحمه الله

إلى روح جدّتي رحمها الله

إلى كل من مرّ ذكره من قريب أو بعيد في حكاياتي

إليكم جميعا أهدي حروفي

داعية الله أن يجمعنا على مرضاته، ويوفقنا لما يحبّ ويرضى

أحبكما وسأبقى

–فائدة بركات–

مقدمة الكتاب

(أنا وجدّي) كتاب يروي حكايات حقيقية وو اقعية حدثت مع كاتبة العمل؛ تسرد فيه أبرز محطات حياتها بصحبة جدّها، الذي اتصف بشخصية حكيمة نادرة.

ننصحكم باقتناء الكتاب لما فيه من أساليب تهذيب وتربية تروق للسامع والقارئ في زمن غابت فيه الكثير من القيم الأصيلة.

كلمة المؤلف

إنها حكاياتي وأسراري مع جدّي، وهي حكايات منقولة عن و اقع وحقيقة؛ عشتها مع جدّي محمد –رحمه ربي– و آثرت نقلها لكم لتستفيدوا من حكمته، ولتكون صدقة جارية عن روحه هو وجدتي؛ أسكنهما ربي فسيح جنانه.

أهدي كتابي لروحيهما حامدة ربي على وجودهما في حياتي وشاكرة فضلهما في كوني ما أنا عليه الآن.

أحبكما وسأبقى.

فائدة...

سَلَطَة جدي

كم أشتاق ويصفعني الحنين لماض عشته بصحبتك جدّي –رحمك الله– ما زلت أذكر تلك (الحاكورة) كما كان يسميها جدّي وقصد بها الحديقة، وكيف كنت أشاركه زراعة الخضراوات بترتيب ونظام هندسي؛ أتعجَب كيف يتقنونه دون أدوات أو حتى مسطرة بسيطة.

فقط يعتمد على عينيه ويديه في تنظيم صفوف الخضار على نحو يسرّ الناظرين. كان يحرص على هذا قبل شهرين من قدوم رمضان؛ لتكون مائدة رمضان عامرة بالطازج من الخضار، فمهما كان الطبق الرئيسي لا بدّ من وجود سلطة جدّي حاضرة بامتياز.

للآن ما زلت عاشقة لأوراق الخردل اللاسعة، ورائحتها تنعشني، وما زلت أشتم رائحة التراب وأنا أشبك يدي بيده لاقتلاع جذور الجزر والفجل من الأرض، وكنت أعلم مقدار حجم جذور الجزر والفجل من أوراقها، فكلما صَغُرَتْ الأوراق كان الجذر قويا كبيرا شهيا، وكلما كَبُرَت كان الجذر ضعيفا صغيرا، لذلك لا يغرّنكم كبير الشيء فربما كان خاويا، ولا تستهينوا بصغائر الشيء فربما أنبأت عن عظيم تجهلونه.

ما زلت أذكر أول مرة أجبرني فيها على تناول (سندويشة) البصل الأخضر الطازج مع الخبز فقط.. دمعت عيناي وهو يضحك ويقول: أكمليها! وللآن لا شيء ينسيني حزنا أو يزيل عنّي عبوسا كمنظر الأوراق الخضراء على مختلف أنواعها!

جرت العادة في أول أيام رمضان أن يقوم جدّي بذبح خروف يُسميه (خروف الحَرَم) ويقصد بالحرم كل من تمتّ له بصلة رحم من الإناث، ليقوم بدعوتهن مع أزواجهن في أول يوم من رمضان ابتهاجا وإرضاء لله تعالى...

فدعوة صلة الرحم في نظره ليست عبئا اجتماعيا، أو عادة من قبيل المجاملة، هي فرض واجب عن طيب خاطر، لذلك كان يقول: من يدعوني لبيته واجبا لا أريد دعوته، ومن يدعوني لبيته راغبا يا مرحبا بدعوته.

أجمل ما في ذاك الخروف أنني أتأمل عيونه وأودعه، و أقول لجدّي لحم رقبته وكتفه لي، ليضحك بشدة. لا أخاف منظر الذبح...

هل تعلمون لماذا؟ ليس قسوة مني، ولكنّ جدّي علمني أصول الذبح الشرعي؛ التي لا تسبب عذابا وألما للحيوان المذبوح، فيبقى لون اللحم أحمرا طازجا لأن بركة اسم الله تتخلل جزيئات اللحم فتحفظه، بل بعظمة الله تغادره الأسقام إن وُجِدت، أما إن ذُبح على نحو خاطئ، فإن ألم الحيوان يسبب احتقانا وزُرقةً في اللحم تكون بؤرة للأسقام والجراثيم.

يطلب جدّي من الرجال إحضار وعاء واسع، ويجعل دم الخروف يسيل فيه، أسأله لماذا؟ ينهرني أن لا أسأل وهو مشغول، ولكنني أطوف حوله كنحلة مزعجة لأعرف الإجابة، فماذا يفعل؟ يصبّ الدم في دلو ثقيل عليّ ويجبرني على حمله عقابا لي، وننطلق أنا و إياه نحو الحاكورة، فنسقي أشجار التين والزيتون والرمان والعنب من هذا الدم...

وقبل أن أسأل لماذا؟ يجيبني قائلا أنني أشهدت ربي أن هذا الخروف نعمة من نعمه عليّ التي جعلتها طعاما لصلة رحمي ابتغاء مرضاته، فدمه مبارك، وبركته ستروي هذه الأشجار عطاء، وهكذا يتعامل مع دم الأضاحي أيضا، ووالله للآن؛ لم أذق بحلاوة تين وعنب ورمان تلك الأشجار. التي كان البعيد والداني يأكل من بركتها.

وينشغل الجميع في الطبخ والتحضير لأول إفطار رمضاني يسرّ الخاطر...

أما أنا وجدّي فنقوم بتحضـــير سلطته المشهورة، حيث نجمع أوراق البقدونس والفجل والخردل والجرجير والبقلة والخس ونقطعها، ثم نعصر عليها الليمون لنمنع تأكسدها، ونضيف عليها البصل والخياروالبندورة والجزروالفجل والفلفل بأنواعه، وأوراق الرشاد إن كنتم تعرفونها، ونخلطها جيدا ثم نرش عليها بذور عباد الشمس وقليلا من الملح وزيت الزيتون والسماق.

لن أصف لكم لذتها وقيمتها الغذائية، أما منظرها فلوحة فنية غاردافنشي من ألوانها.

أحبك يا ربيع قلبي الدائم، وسأشيب طفلة في قصر ذكرياتي معك... رحمك ربي وكل عام و أنت وجميع موتانا برحمات الله مغمورين.

شهم

لا أذكر أنّ جدّي غضب كما غضب مني ذاك اليوم، كان في رمضان، وعندما عدت بذاكرتي لذاك اليوم بكيت و أنا أكتب هذه الحروف، كانت روحه ملاكا يحرسني أينما ذهبت، والآن وقد رحل، فمن يحرسني من حماقاتي؟!

كنت أخاف لمس القطط وكانت لديه هرّة لونها أبيض وأسود يحبها هو وجدتي وتعيش معهما، ولأنني أخاف لمس القطط أحضر لي نوعا من الطيور اسمه (شنّار) يشبه العقاب كثيرا، أحببته حد الجنون...

والعجيب في هذا الطائر أنه إن أحبّ صاحبه لا تحتاج أن تضعه في قفص، يطير ويحلق ويقتات ثم يعود إليك. أذكر ذاك اليوم كم كان حارا، اضطر جدّي للذهاب إلى السوق مع صحبته، وأمرني أن أبقى في البيت ولا أر افق أحدا.

كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي أخالف أمره فيها، جلست أداعب طائري وكنت أناديه (شهم)، وقد اختار اسمه جدّي، وفجأة طار، فعرفت أنه ذهب ليقتات، ليحضر أولاد العائلة وكانوا كلهم ذكورا، أولاد خالي وخالتي؛ نظروا لي وقالوا: هل تذهبين معنا لقطف (الحُمِيض) وهو نبات جبلي بزهرة وردية

وأوراق خضراء طويلة شهي وشديد الحموضة، أحبُّ مذاقه، ولم أخبر جدتي بأنني سأر افقهم، وأهملت كلام جدّي.

مشيت معهم مسافة طويلة وبعيدة، كانوا أشقياء يتعمدون إخافتي طوال الطريق، ثم قالوا لي ادخلي من هذه الطريق ذاك هو الحميض. رأيته من بعيد، فركضت نحوه لأقطف منه، ولم أعلم بأنهم عادوا وتركوني وأن هذا أحد مقالبهم، فقد كانت الغيرة تشكل حاجزا بيني وبينهم لأنني كنت مر افقة لجدّي أكثر منهم.

جمعت من الحميض الكثير لأن جدتي تحبه وقلت ستسعد به بعد الإفطار، أذكر أنني كنت صائمة، لكنني نسيت وتناولت منه القليل وما إن تذكرت حتى كففت.

كنت على حافة منحدر خطير لتنزلق قدمي و أتدحرج نزولا نحو المنحدر، وارتطم وجهي بصخرة حالت دون سقوطي أسفل المنحدر، وبدأ الدم ينهمر من وجهي، ولم أعرف تحديدا من أين، وبقيت هنالك لأكثر من ساعتين.

في هذه الأثناء افتقدتني جدتي ولم تجدني، انتظرت عودة جدّي الذي ثار غضبا، خاف أولاد العائلة من مصارحة جدّي، ولم ينطق أيّ واحد منه بشيء.

عاد(شهم)، وكان جدّي يدرك حدس الكائنات، فانطلق وراء الطير عسى أن يعرف مكاني ليلحقه ابن خالي الأصغر ويعترف له، ويقود جدّي للمكان الذي تركوني فيه، لكنني لم أكن فيه، كنت أسفل المنحدر فاقدة للوعي، لكنّ شهم عرف مكاني ودلّ

جدّي عليه وكان من الصعب الوصول إليه، فأمر جدّي ابن خالي بإحضار المساعدة.

لم أدرك لحظتها أي شيء ولم أفق إلا و أنا في المستشفى، وقد أصبت بكدمات شديدة في وجهي.

أفقت ووجدت الجميع حولي إلا جدّي، فعرفت لحظتها مدى غضبه.

كانت عيني متورمة شديدة الزرقة، وكذلك خدي الأيمن، وخدوش هنا وهناك. أخذتني أمي معها للبيت، ولم أعد لبيت جدّي، قالت هو أمر بذلك. لم أتحسن، خفت الرضوض والكدمات، لكنّي اشتقت لجدّي وجدتي وشهم، وكنت أبقى صائمة ولا أفطر إلا القليل مجبرة.

مرّت أربعة أيام و أنا أناديه، أعلم أنه كان حازما جدا وأراد مني أن أتعلم درسا أرعبني، ورجوت أمي أن أذهب لزيارته، فابتسمت وقالت: لقد جاء هو، يا إلهي! قمت من فراشي كالمجنونة واحتضنته بشدة، تفحص وجهي وقال: لقد أوجعتني يا فايدة، لم أتخيل وجهك هكذا أو أن يحدث لك شيء.

كانت قسوته في باطنها حنان الدنيا وما فيها، داعبت ذقنه وقبلت رأسه اعتذارا، فقال: أمسكي أذنك، فأمسكتها، وقال أعيدي قولي (حُرّينتِي يا ذِينْتِي)، وهو قول شائع بين الأجداد لتعليم الصغار الاعتذار والتوبة ومعناه: حريّ بي يا أذني قطعك لو أعدت فعلتي هذه.

عدت معهما تلك الليلة، وتسحرت معهما أقراص البيض التي تحضرها جدتي بخلط البيض مع ملعقة دقيق أسمر وبعض الملح والفلفل الأسود، وتصبها في مقلاة ساخنة دون زيت، ثم تقلبها بالمقلاة بتطيير القرص لفوق.. قرص شهي، والأشهى منه وجودي بينهما، أما ما جعلني أضحك بشدة بعد فترة هو أن جدّي عاقب أولاد خالي وخالتي ببناء سور من الحجر حول الحاكورة في أوج الحرّ وهم صائمون...

وكنت أمرّ من أمامهم وهم يعملون تحت إشراف جدّي وأعطيهم التعليمات قهرا لهم، فما أن يلفّ جدّي رأسه حتى يهددوني بالعقاب، فأضحك و أقول لجدّي: يقولون لي بأنهم يرغبون في بناء سور آخر، فينظر لهم وهو متيقن أنني أكيد بهم، ويقول: أبشروا، ما إن تنتهوا حتى أجعلكم تهدموه لتبنوه مرة أخرى، فيصرخون، لا، لا. ليقول: إذًا، سبحوا الله وكبروه بعدد الأحجار التي تبنون بها بدلا من تهديد فايدة المسكينة.

هههههه وحقيقة لم أكن مسكينة، استمتعت بقهرهم!

رفقا بالقوارير

لقد فزعت على صراخ امرأة تدق بيت جدّي بعد العشاء، وكنت في العادة أنام باكرا لأستيقظ مع جدّي لنسقي الأشجار بعد الفجر قبل سطوع الشمس؛ كي لا يتبخر ماء السقاية. قمت مرعوبة، أشار جدّي لجدتي أن تحضر للباب معه لأنه سمع صوت امرأة، فتح الباب، تراجع خلفه يمينا كي لا تقع عينه على حرمات، تلك عاداتنا، رآني جدّي فزعة ففتح ذراعيه واحتضنني.

دخلت جارتنا تسأل عن جدّي، هدأتها جدتي قليلا، وسترت شعرها المنسدل من حجابها، وأدخلتها، ليُطْرَق الباب بقوة، ونسمع صوت زوجها يقول: سأعلمك الأدب.

فتح جدّي الباب له وما إن رأى جدّي حتى وضع عينيه في الأرض خجلا من نظرة جدّي له، واعتذر وقال: سامحنا أبا طاهر، تلك امرأة لا تعرف الأدب ولا التهذيب، أهلها ما عرفوا يربوها، وتلك كانت أول مرّة أرى جدّي يصفع رجلا فيها، لقد ضربه، وقال له: اخرس، هل تَعيبُ من صارت عِرْضَكَ وأم بناتك قبل أولادك! كيف تريد لبناتك الزواج و أنت تَعِيب أمهن.

خجل الرجل جدا، وفي وتلك اللحظة دخلت ابنته، وكانت من أقراني في الثانية عشرة من عمرها وهي تبكي وتسأل والدها:

أين أمي؟! ولماذا ضربتها؟! أمرها جدّي بالعودة لإخوتها، وقال: أمك الآن ستعود، لا تقلقي. نظرت لي فقلت لها: اذهبي الآن ستأتي أمك.

ذهبت، وأدخل جدّي الرجل وحادثه بحديث لم أسمع خواتيمه لأنه أمرني بالخروج، لكنني سمعت بداياته وهو يقول: ما اسم ابنتك؟ قال: زينب، فردّ عليه جدّي: وهل تريد أن تُضْرَب زينب، أو أن تُهان من زوجها يوما ما؟! أو هل تريد أن تُعاير بأمها؟! صرخ الرجل لا، لا، فقال: إذًا، فصُنْ عِرضك، ومن مدّ يده على امرأة فهو لا يستحق أن يكون رجلا، ثم أمرني بالخروج من عندهما.

ذهبت لأجهز الشاي بالنعناع للضيوف، ووضعت بجانبه تسالي جدتي التي تجهزها للشتاء، فقد كان الفصل شتاء، وضعت اللوز المجفف والزبيب والقطين (التين المجفف) وبذور السرو والقروط (وهو الزيتون الأسود المجفف)، وضيفت الضيوف، ثم نادى جدّي جارتنا وسألها: هل تخلعين ملابسك أمام والدك أو أخيك؟ فخجلت جدا، ومن الخجل اختبأت خلف زوجها، فضحك جدّي وضحكت معهم كالبلهاء، فقد فهمت مقصده متأخرا.

ثم قال: أنت ستروغطاء له وهو ستروغطاء لك، لن يضربك بعدها، ولن تعصيه أنت بعدها، وأمره بتقبيل رأسها، ثم قال: عودا لبيتكما، فأطفالكما ينتظرون عودتكما، وغمز لجدتي

التي أعطتهم طبقا من الحلوى لصغارهما، وغادرا، ولم نسمع عنهما إلا كلّ خير بعدها. أما أنا جلست آكل ليخطف مني جدّي الطبق وهو يقول: المعدة وعاء يا صغيرتي، فلا تجعلي وعاءك يتسع، كي لا تسمني، ومنذ تلك الليلة (هههه) و أنا أخاف أن آكل في وقت متأخر، لأنه بعد أن خطف الطبق مني سألت جدتي: ماذا يقصد؟ قالت: قصده، احرصي على أن لا تكثري طعامك، فتتوسع معدتك وتسمني.

سبحان الله! من قال إن العلم في الصغر نقش في الحجر قد صدق! فما زلت للآن أخاف السمنة، وأحرص على صحتي، و أتجنب الأكل في وقت متأخر، وما زلت أجل من إظهار أسناني ضاحكة أمام العامة في الشارع، لأن جدّي كان يقول لي: (الفتاة إن بان نابها الحقها ولا تهابها) وقصد بذلك أن الفتاة التي تكثر الضحك في الشارع هي فتاة سهلة المنال وغير حيية.

رحمك الله يا معلمي، رحمك الله يا معلمتي.

أحبكما وسأبقى.

الرجولة بحق هي اتقان التعامل مع الأنثى!

سليمى

لقد كان لجدّي أخت تصغره بعام اسمها (فضة)، كانت امرأة قوية ذات هيبة، أرادت يوما أن تخطب لابنها عروسا، حضرت لجدّي تستأذنه أن تر افقها جدتي لرؤية العروس، و افق جدّي وسمح لي بالذهاب معهما لأرى العجب. للآن لا أستغرب أحداث أيّ فلم أو مسلسل يُعْرض، لأنني رأيت الكثير بحكم ما عشته مع جدّي.

دخلت الفتاة حيية وشعرت أنني أطول منها، فتحت فمي متعجبة هل هذه عروس؟! نادتها العمة (فضة) وطلبت منها الكشف عن ذراعها، ثم فتح فمها، أهمس لجدتي بأن تفسر لي، فتقول لي: عَيْب، سأخبرك بعد عودتنا، تُكْمِل العمة اختباراتها من تلمس شعر العروس ورؤية طوله إلى تأمل قوامها، ليبدأ بعد ذلك السؤال عن مهاراتها في الطبخ وإدارة المنزل، فشعرت بملل وضجرت، وطلبت من جدتي العودة لجدّي، فسمحت لي بالخروج.

وأنا في الطريق قابلني صديق جدّي وقال: ما شاء الله أصبحت عروسا، لا أعرف لم شعرت بالخوف و اقشعرّ بدني، خصوصا بعد ما رأيته، كنت لا أخجل أن أسأل جدّي سؤالا أبدا، هكذا عودني. وصلت إلى البيت لأرى جدّي يقف أمام فرس

جميلة جدا، فركضت نحوه ليحتضنني وكأنني غبت عنه دهرا، وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها فرسا أمامي، لقد وقعت في غرام الحصان منذ تلك اللحظة، وأصبح هو والغزال أقرب الكائنات إلى قلبي.

طلبت من جدّي أن أركبه، قال لي: هذه فرس وليست حصانا، قلت لا يهم، أريد ركوبها، فأعطاني في يدي قطعا من السكر وقال: أطعمها، فهي إن أحبتك لن تتغلبي في ركوبها، وكان ذلك أول يوم لي في تعلم ركوب الخيل.

يا الهي! ركوب الخيل يشبه الطيران، شعور بالحرية والسعادة ما بعده شعور، لقد سَمَيْنَا الفرس (سلَيْمَى) لأنها كانت أغنية جدّي المفضلة التي يتمتم فيها و أنا معه. (سليمى يا سليمى نامت الناس وعيني مش نايمه).

كنت على ظهرها لأسمع صراخ العمة فضة وهي تقول لجدّي، أنزلها كي لا تقع، فضحك جدّي وقال: لا يقع من في القلوب قد وقَع، ويسأل: هل أعجبتك العروس؟ قالت: لا بأس، لكنها هزيلة تحتاج لأن تسمن قليلا.

لا أخفيكم، لقد شعرت بنفور من قولها، انتظرت مغادرتها، وقلت لجدّي: هل العروس سيارة؟! ضحك ضحكة جعلت الطيور تطير بعيدا من فوق الأشجار، وقال: اجلسي الآن لأخبرك شيئا، هي فحصتها بعُرف أهلها وبمو افقتهم، فليست كلّ الفتيات مثلك يا فايدة، هنالك عائلات فقيرة مستورة الحال رزقهم الله عددا

من الإناث في نظرهم عبء وكاهل عليهم، لا يستطعن إكمال تعليمهن، والحلّ المثالي لتلك الأسر هو تزويجهن برجل صالح.

لقد خلقنا الله بظروف وأحوال مختلفة، ومنح كلّ واحد منّا القدرة على تحمل ظروفه وفقا ليقينه وقناعته، فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها، تلك عادات تزويج الفتيات قديما، وما زالت سائدة في بعض الأسر البسيطة، وهكذا أنا تزوجت جدتك، الزمن يتغير، و أنت في زمن لك أن تكون أميرة فيه.

في تلك اللحظة نضجت. نعم، لقد كبرت في تلك اللحظة، لا أعلم كيف؟ شرد ذهني ليعود على صراخ جارنا، وهو يقول: أبا طاهر أنقذ عثمان فقد وقع على ذراعه قِدر ماء ساخن أحرقها.

ارتعبت لهذا المنظر، لكن ما إن نظر جدّي لي حتى أدركت، كنت تلميذته في التطبيب، أحضرت من الداخل وصفته للحروق وأظن مهما تطور زماننا سيعجزون عن إدراك سرّ وصفات الجدود، لقد وضع منها على ذراعه ولفها له وأمر بأن يغيّر ضماده صبح مساء.

لست أنكر فضل الأطباء ولا عظمة العلم، ولكنني متيقنة من عظمة حدس الأجداد ونقاء سرائرهم.

كانت وصفة جدّي للحروق –عافانا ربي و إياكم منها– هي جمع بيوت الحلزون المنتشرة في البريّة بعدما يتركها هذا الكائن الرخوي، ثم غسلها جيدا وتجفيفها وطحنها مع أوراق الشاي

الأسمرومزجها مع العسل. وبعد عظمة الله لا تترك أثرا للحروق، لقد شُفِيَ عثمان من حروقه بعد أسبوعين.

لروحك معلمي الروحاني، وجدّي العظيم رحمات ربي ومغفرته.

أحبك وسأبقى.

حناء

رغم أن جدّي من زمان جميل قد رحل إلا أنه كان يحب بعقله ويفكر بقلبه، ولم يحرّم الحب يوما، أدركت ذلك عندما كنت قرينته أينما ذهب، وأذكر عندما قَدمَ علينا ياسِرٌوهو شاب قريب لجدّي، لقد أفصح لجدّي عن حبه لفتاة ما، وأنه لن يتخيل حياته دونها، وطلب من جدّي أن يسعى في خطبتها له، كان ياسر يتحدث عنها دون وعي ويصفها مادحا إياها أمام جدّي، حتى أنه وقف وقال: سأعلن حبي لها أمام الجميع. كان جدّي يستمع له مبتسما حتى قال ما قاله، فجأة قطّب جدّي حاجبيه ونَهَرَه.

دُهِشَ ياسر، فقد وضع جدّي يده على صدر ياسر، وقال له: اجلس فإنك وربي إن أشهرت حبها ما نلتها، عبارة رنت في أذني، اخترقتني، وعادت لي أيام دراستي في الجامعة عندما درست أشعار قيس بن الملوح وجميل بثينة، وكُثَيْر عزة.

ليس العيب في الحب، العيب بأن تُشهر حبك، هكذا كانت قناعات العرب وما زالت حقيقة، فما إن أشهر جميل بحبه لبثينة حتى حُرِّمَت عليه بِعُرْفِ العرب، فهو قد أشهر بها في نظرهم وهذا يعيبها ويعيبهم، وكي يثبتوا عكس ما أشهره يحرمونه منها، فيزوجوها لغيره.

لن أقول إن هذا رجعية ولا تخلف، بل فعل مغلف بحكمة لا ندركها، لأعود لجدّي كي تفهموا مقصدي، فسأل الشاب جدّي: لماذا لن أنالها؟! و أقسم بأنه صادق ويحبها وهي تحبه، وقف جدّي وقال له: إياك أن تشهر بحبها، و إياك أن تقول لأحد بأنها تحبك، وعقّب بمثل شعبي قائلا: (هون حفرنا وهون طمرنا).

اقتربت من جدّي أكثر ولامست كتفه، فنظر لي ولمس يدي بحنان، ثم قال لياسر: ألم تُدرك قول الرسول صلى الله عليه وسلم. (واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) كما أنك يا بني لا تدري من يريدها غيرك، فإن سمع بحبك لها كان عزولا بينكما، الإشهار يثير نار الغيرة والأحقاد في القلوب، إن كان في غير أو انه، وهي لا تحلّ لك بعد. فمن كَثُرَ قوله زاد تعثره.

ضرب ياسر جبينه بكفه، وصمت برهة. جاءت جدتي الغالية بالشاي و ابتسمت وهي تقدمه وكأنها علمت حال ياسر، كانت قليلة الكلام، ولكنّ العجيب فيها قدرتها على فهم جدّي من نظرة عينيه، وإدراك المواقف بحكمتها، ثم قالت: ما جعل جدّي نفسه ينهر منه، قالت: والذي جمعني بأبي طاهر من غير ميعاد، وألف بين قلوبنا أحبه حبا لو أشهرته لغار منه كلّ رجال العالم، لكنني أخاف عين حاسد فينا.

فتحت فمي، ونظرت لجدّي وكانت تلك أول مرة أرى حُمْرَة الخجل تغزوه، مع نظرة دفء نظر فيها لجدتي تبوح بقلب عاشق بها متيّم، الله! ما أجمل حبهما! وما أروع سرائرهما وما أنقاها!

لكي تشتعل شمعتنا نداري عليها من هواء قد يخطف شعلتها!

بعد شهر ذهب جَدّي لخطبة علياء لياسر، بطريقة تقليدية ولم يشك أحد من الحضور بأنه عاشق لها، نظروا للأمر على أنه زواج تقليدي عادي، وحضرت زفافهما وكنت أضحك في داخلي لعلمي بأن الكل يظن ياسر وعلياء يشعران بفرحة واحدة، وهما يشعران بفرحتين، وآخذ من الحناء وبدلا من أتزين فيها، كنت أرسم فيها قلوب حب على الجدران، رآني جدّي ونهرني، لكنني اقتربت منه، كنت لا أخافه مهما نهرني، وكأن نَهْرَ الحبيب عسل.

اقتربت، طلبت منه أن يفتح كفه، ورسمت عليها قلبا بالحناء، وكذلك فعلت لجدتي، وللآن ما زلت أؤمن بأن الحب قاهر لقسوة القلوب مهما اشتدت، ومذيب لجليدها مهما بلغ سمكه.

أحبكما وسأبقى، رحمكما ربي.

توبة

رغم وداعة طائر الحمام وجمال منظره، إلا أن هذا لم يمنعني عن تناوله والتلذذ بطعم لحمه الشهي، ولهذا حكاية.

كنت من عشاق الماء واللعب فيه خصوصا بعد الإفطار في ليالي رمضان الحارة...

كان يمنعني جدّي من اللعب في الماء ليلا ويقول: هذا غير مستحب وقد تزعجين عالم الجنّ بذلك، فضحكات الليل مع تراشق الماء تجذب الجنّ، عادة لا أخالفه لكن تلك الليلة ذهب لزيارة صديق له مريض بعد الإفطار، ونبهني أن لا أبتعد عن جدتي.

جرت العادة أن تأتي الجارات ليسهرن عند جدتي، وكلّ واحدة فيهن تحضر طبقا من الحلو، ويتبادلن الأحاديث. تلك الليلة حضرت ابنة الجيران خولة...

وكان أمام منزل جدّي نافورة من الماء هو قام بصنعها من الأحجار والطين، وعلى جانبها الأيمن (زير ماء) وهو جرة من الفخار كبيرة الحجم يوضع فيها الماء لسقاية المارة...

فمن أعظم الصدقات هي سقاية الماء...

وكان جدّي يحيط هذا الزير بطبقة من (الخيش) وهو نوع من القماش، وينثر بذور القمح والشعير على هذا الخيش ويرويها، لتنبت معانقة الزير بأبهج حلّة، وعلاوة على ذلك تُسهم في المحافظة على الماء باردا جدا، كما أنها تكون طعاما للطيور.

خرجتُ مع خولة أمام البيت، ذهبت لتشرب الماء من الزير وبعد أن فرغت رشقتني بالماء من باب المُزاح والمداعبة، فما كان مني إلا أن رشقتها بالمثل من ماء النافورة...

ونسيت تحذير جدّي، ولعبنا وضحكنا حتى تبللت تماما، وشعرت بثقل جديلتي شعري المتناقطتين ماء، ودخلت على جدتي التي رمقتني بغضب، وطلبت مني تبديل ملابسي في الحال.

بدلت ملابسي وغفوت بجانبها من التعب قبل جفاف شعري؛ رغم أن جدّتي حاولت جاهدة منعي من النوم إلى أن يجفّ شعري، لأن النوم بشعر مبلل يورث المرض، هكذا كانت تقول لي.

غفوت ولم أعلم بأن غفوتي ستطول، فقد أصبت بحمّى شديدة جدا كانت تودي بحياتي، أسبوع كامل والأطباء يحاولون ولا جدوى، فقد فتك البرد بعظامي ليلا مع الماء البارد، وكانوا يقولون (برد الصيف أحد من السيف).

أصاب جدّي الحزن الشديد وكان ضد دخولي المشفى، لكنه استجاب لرغبة أمي و أبي، كان لا يفارق سريري، بين فينة وأخرى أفتح عينيّ عند هدوء الحمى لأراه يقرأ على رأسي، سببت الحمى هزال جسدي وفقدان الشهية.

أذكر حديث جدّي مع الطبيب وكأنه حلم، جاء الطبيب ليخبر جدّي بأنني أتعرض للجفاف، وإن بقي حالي هكذا سيسوء وضعي، وأنهم سيغيرون جرعة الدواء في الوريد لتفادي ذلك، فجأة حملني جدّي بين ذراعيه، وأمي ترجوه أن يسمع كلام الأطباء، أما أبي فكان يثق بقراراته ثقة عمياء.

حملني ونزع إبرة الوريد من يدي، ولفّ يدي بمنديل جيبه القماشي الأزرق. عندما يئس الطبيب من منعه طلب منه التوقيع على ورقة يتعهد فيها بتحمل كامل المسؤولية عن خروجي من المشفى، ففعل ذلك، وطلب من أمي و أبي العودة لبيتهما وقال: هي بحاجة دعائكما لا دموعكما.

تشبثت بصدره وشعرت بدفء لم أشعر به مرة أخرى في حياتي بعد وفاته، وغفوت و أنا كلّي ثقة به.

منع الزيارة وطلب من الجميع عدم الحضور لحين تحسني، وكان كلّ يوم يضع على جبيني كمادة من أوراق الفجل المنقعة بالخل الممزوج ماء، لسحب الحرارة إضافة إلى أنه يجبرني على تناول نوع من الشوربات (الحساء)...

لم أذقها قبل ذلك. كانت شهية جدا، كان يجعلني أتناولها ثلاث مرات يوميا، ومساء قبل النوم أشرب كأسا من عصير البرتقال.

بعد أربعة أيام بفضل الله تحسنت، وعدت لأمشي و أثرثر، وأذكر أنه أمسكني من جديلتي وقال: لي رغبة في قصهما لأنك لم

تنصتي لكلامي، ولعبت في الماء تلك الليلة، وأحمد الله أن الأمر كان مجرد حمّى ولم تضرّي بشيء آخر.

كنت مراوغة فاقتربت منه وجلست أمامه بعد أن قبلت يديه، وقلت له: (تووووبة) و أنا أضع أصبعي الشاهد على فمي إعلانا للتوبة، فضحك وقال: لن يمنعني ذلك عن معاقبتك، راوغت مرة أخرى، وجلست في حجره، وقلت: أريد شوربتك اللذيذة. ما هي؟

ابتسم وقال هي شوربة الحمام، فدُهِشتُ، وسألته: تقصد طير الحمام، فأجاب: نعم، إن لحم الطيور الحرّة المحلقة في السماء يمتاز عن غيره من اللحوم بقلة الدهن لأنها دائمة التحليق، وهذا يجعله نافعا للبدن، إضافة إلى أنني جعلتك تتناولينه بعد أن جعلت جدتك تسحق لك حتى عظامه مع البصل الأخضر والفريكة.

لا أخفيكم، للآن أعشق لحم الحمام وأخصّ المشوي منه، وما زلت أعشق أنغام فيروز وهي تغني (روح يا حمام لا تصدق بضحك ع ريما تا تنام).

جدّي يا فيروز عمري ويا طبيبي، سأرسل لك مع أسراب الحمام دعو اتي.

أحبك وسأبقى؛ رحمك ربي.

العثماني

كان يسكن بالقرب من بيت جدّي –رحمه الله– رجل يناديه الناس بالعثمانيّ، ما زلت أذكر عينيه الزرقاوين وشعره الأشقر، كانت لهجته مختلفة عنا، وكم كان جدّي يحنو عليه كثيرا...

في أحد أيام رمضان أذكر أن جدّي قام بذبح الذبائح لتوزيع لحومها على الناس ابتغاء لمرضاة الله، ولفت نظري أنه جعل للعثمانيّ ضعف الكمية الموزعة للجميع وشدد على ذلك، سألته لماذا؟ قال: اذهبي أولا لأخذ اللحم لهم، وعندما تعودين سأخبرك.

توجهت نحو بيته وطرقت الباب بلطف، خرج العثمانيّ وأعطيته اللحم، فابتسم بدفء ورفع رأسه نحو السماء وقال كلاما بلغة أخرى لم أفهمها، ثم شكرني وقال: سلامي لجدّك.

عدت وأنا أفكر: أيّ لغة تلك التي حدثني بها، لقد أثارت فضولي، وأعتقد أنّ هذا هو السرّ وراء حبي للّغات وتعلم أكثر من لغة لاحقا. وصلت وهم ينظفون مكان الذبح وتقطيع اللحم، وكنت انصت لتعليمات جدّي لهم وهو يقول: لا تتركوا أثرا للدهن أو الزفر، فذلك جالب للأفاعي، ثم صبّوا فوق مكان الذبح ماء وملحا.

وقال: لا تبيتوا عظاما في البيت وتخلصوا من كل النفايات خارجا فإن الجنّ يحبّ العظام، وما زالت أمي تحرص للآن بعد تناولنا الطعام على التخلص من نفايات البيت قبل نومنا، فلا تبيّت في سلة النفايات شيئا، وذهب جدّي ليسترخي تحت دالية العنب، وطلب مني الجلوس بجانبه، كان قويّ الحدس ولعلي ورثت هذا منه أيضا، ثم خاطبني قائلا: ما هو سؤالك الذي يكاد يصرعك؟ ضحكت وقلت: من هو العثمانيّ؟ وما هي تلك اللغة التي تمتم بها؟ ولماذا نصيبه في اللحم كان مضاعفا؟

قال لي: سأجيب عن سؤال واحد فقط من أسئلتك تلك فاختاري أيّ سؤال تريدين!

فكرت قليلا، وكان يختبر ذكائي كعادته، ثم قلت: من هو العثمانيّ؟ سألني لماذا اخترت هذا السؤال؟ قلت لأنك إن أجبت عنه سأعرف إجابات الأسئلة الباقية بديهيا، فضحك وقال: إذًا، عليك إدراك حقيقة أننا نستطيع الحصول على ما نريد إن بقينا في نفس طريقنا سائرين دون التفرع هنا وهناك، ولاحقا أدركت أنه قصد تعليمي الإيجاز وبلاغة القول بدلا من كثرة الكلام.

أكمل حديثه قائلا: العثمانيّ هو رجل من تركيا يا فايدة، قَدِم لبلدنا وهو شاب صغير، وتعلق قلبه بفتاة أردنية التي هي زوجته الآن، وفي ذاك الوقت رُفِضَ بشدة وطُرِدَ مرات، لكنّ الملفت في الأمر والذي جعل الجميع يعرف قصته هو إصراره على البقاء أمام بيت أهلها، رغم أنه ضُرِبَ لأجل ذلك، وإصراره على تعلم

العربية لأجلها. رويدا رويدا اعتاد أهلها وجوده، بل أدرك والدها بأنه دخيل غريب الديار، فاستقبله كأنه واحد من أولاده، وعلّمه المتاجرة بالأقمشة ثم زوجه ابنته، ليثبت الزمان لذلك الوالد بأن العثمانيّ كان رجلا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وبأنه أصبح بارّا فيه أكثر من أولاده الذين من صلبه.

لقد تحمل لوعة البعد عن أهله ودياره لأجلها، لذلك نترفق به أكثر من الكلّ فمن صان أعراضنا صنّاه وحفظناه.

شرد ذهني بعيدا، فكم فُتِنتُ بالعثمانيّ وإخلاصه لمحبوبته.

كانت هي وطنه، كنت حالمة، استلقيت أتأمل قطوف العنب وأنا أفكر بحبهما، فكان مزاجي سلسبيلا؛ ليتبدد هذا المزاج الحالم بصراخ جارنا حامد الذي فاق أبطال الجاحظ من البخلاء في بخله، ويصرخ: الحقوني. تجمع الناس حوله، وسأله جدّي ما بالك؟

لقد جاءنا حافي القدمين يضع نعاله في جيب ثوبه خوفا من أن تُسْتهلك وتصبح بالية فيشتري غيرها، حقيقة لم يكن محبوبا لأننا قوم أصحاب كرم وكان من المعيب جدا أن يظهر بخيل بيننا!

لم أنس منظره يوما بشعره الأشعث وملابسه البالية، فقد كان يخاف شراء ملابس جديدة فينقص ماله! مع أنه من الأثرياء. كم هم حمقى أولئك البخلاء! عبيد المال! أمقتهم بشدة يَصْعُبُ تصورها.

عاد حامد ليضرب رأسه منهارا، وفي يده نقود ورقية ممزقة على ما تبدو، ف سأله جدّي: ماذا حصل؟! قال: الفئران أكلت مالي، أكلت مالي الذي في الوسادة المخبأة في الصندوق، فانفجر الجميع ضاحكين، و أنا حقيقة شعرت بلذة انتصار وقلت بيني وبين نفسي (بستاهل) أي يستحق ما حدث!

أمر جدّي المتجمهرين أن يذهبوا لشؤونهم، وأجْلَسَ حامد عنده وقال: لعلّ هذا درس لك لتستمتع بنعمة الله عليك، ولكنّ الطبع يغلب التطبع.

جدّي ينصحه وهو يبكي على أوراق سرقت إنسانيتنا، أوراق نقدية نحن نصنعها لتحكمنا! تبا، ما أحمقها حقيقة! أوراق أوشك بعضنا على عبادتها، فضاع عمره يهرول وراء جمعها ناسيا لذة الحياة والتمتع بها.

لست أقلل من قيمة المال، ولكنني أقلل من قيمة قلب نحوه مال.

ذاك اليوم أذن المغرب وحامد تحت إضاءة الشارع يحاول لصق أوراق قد ملكته بدلا من أن يملكها.

و أنا على النافذة أناظره باشمئزاز.

يا جماعة اصرفوا ما في الجيب يأتيكم ما في الغيب!

عدنان ولينا

كانت جدتي –رحمها الله– سيدة فاتنة الروح لفرط طيبتها، ساحرة الملامح وكأن في قسمات وجهها سلام العالم كله، كحيلة العينين، علمتني صناعة الكحل من نوى التمر بعد إضافة حجر الأثمد له، وما زال الكحل بلا منازع أجمل زينة للمرأة في زمن الخداع البصري من مساحيق التجميل وعمليات التجميل التي أصبحت عند البعض واجبا.

هل تعلمون؟ كانت تقول لي: لا أعظم من ماء الفجر لبهاء الوجه!

لقد تربيت في بيئة صحية بسيطة أدركت من خلالها أن الجمال هو تقدير نعم الله عليك، وكيفية التعامل مع هذه النعم، فمثلا لماذا تقصّ المرأة شعرها والأصل فيه الطول! ولماذا تزيلين حاجبيك لتعودي لرسمهما!

لطالما استنكر جدّي العبث بخلق الله ومال قلبه لكل شيء طبيعي. أذكر يوما زارنا ابن الجيران ليسلم على جدي، فقد عاد من كرواتيا بعد إنهاء دراسته. كان قلبه معلقا في جدّي، كنت أجلس مع جدّي أتعلم الحساب منه، فإذا بعدنان يدخل علينا. ألقى التحية وردّ جدّي عليه التحية، و اقترب عدنان ليحتضن

جدّي، فسأله جدّي من أنت؟ وأجزم بأنّ جدّي كان يعلم من هو؟ لكنه أراد تأديبه؟!

ضحك عدنان وقال بعفوية: واااال، يا أبا طاهر أنا عدنان!

ما زلت كلما أتذكر هذه القصة أنفجر ضاحكة. شاع في ذاك الوقت مسلسل كرتوني اسمه عدنان ولينا، وكنت أحبّ متابعته وكذلك جدّي، وكنا نضحك كثيرا ونحن نتابعه.

ردّ عليه جدّي: لم أعرفك!

رجع عدنان و اقترب من جدّي وقال: والله أنا عدنان ابن الجيران، ألا تذكرني، لقد أحببت التطبيب بسببك وسافرت لكرو اتيا لأجل دراسة الطب.

نظر له جدّي وقال: ظننتك مع هذين الحاجبين المنمصين، ومع هذا الشعر الطويل المنسدل، ومع هذا الذقن الأملس، ومع هذا البنطال الضيق (لينا)!

وقتها انفجرت ضحكا، كان جدّي يوبخه لأن منظره يفتقر لمنظر الرجال بحق. رآني عدنان أضحك، وقال: تبا لقد ذهبت هيبتي، والحرج يعلو وجهه.

أجلسه جدّي بجانبه وقال: يا بنيّ هيبتك ذهبت في اللحظة التي قررت فيها الخروج عن عاداتنا بحجة التمدن والتطور، لقد حُرّم النمص على الفتيات لتأتي أنت الشاب وتنمص حاجبيك، لو شعرت فايدة بهيبتك لما ضحكت عليك!

أذكر أنه قبل يد جدّي، واستغفر ربه وغادر.

أما أنا فنظر لي جدّي بنظرة عاتبة وقال: إياك أن أراك عدنان يوما ما، حافظي على أنوثتك التي أوشكت أن تضيع بضحكتك الصاروخية تلك على عدنان، فالأنثى إن ضحكت لم تجاهر.

ومنذ ذلك اليوم أحرص على عدم رفع صوتي إن ضحكت.

بعد أسابيع، كنت في الطريق وقابلني عدنان بحلّة جديدة، حقيقة شعرت بهيبته، فقد قصّ شعره وبدا أكثر رجولة بكامل تفاصيله. أدرك بأن الرجولة ليست مظهرا، ولكنّ المظهر مكمل لها، في زمن تكاد لا تفرق فيه بين رجل وامرأة أحيانا.

للآن ما زلت أنظر للرجل؛ فإن مال وتغنج في حديثه أو مشيته، أسقطته من اعتباراتي كما تسقط أوراق الخريف، وما زلت أنظر للفتاة؛ فإن شعرت باسترجالها أعطيتها ظهري مجانبة، فما أجمل أن نكون على طبيعتنا التي خلقنا الله بها مع الحرص على حسن الهندام والأناقة واللباقة.

إن فقد الورد رقته ضاعت قيمته، وإن فقد الصقر نظرته ضاعت هيبته!

بوم

لقد ارتبط ذكر طائر البوم بالشؤم في تراثنا وما زال البعض ينظر للبوم والغراب على أنهما نذيرا شؤم وخراب، مع أن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام قد نهى عن التطير، حقيقة لا أخاف البوم أبدا والسبب في ذلك طريف جدا، لقد مرض حفيد جارة جدّي، أصيب بحمى يصاحبها استفراغ وإسهال شديدان، أذكر أنني كنت جالسة مع جدّي وجدتي –رحمهما الله– بعد المغرب، إذ بنا نُدْهَشُ بحضور جارتنا ومعها طائر بوم، وقد قَدِمَ معها ابنها والد الصغير المريض الذي يبلغ من العمر ما يقارب العام.

تفاجأت، كانت تلك أول مرة لي أرى فيها طائر البوم، ابتسم جدّي وكأنه يعرف سبب حضورهم، كان الطفل متعبا جدا، ولم يجدِ معه دواء المشفى على حسب قول جدته، لذلك قررت معالجته على طريقتها.

هي تعتقد بأن طائر البوم قد رمق الطفل بعينه وهو في مهده من نافذة البيت مما تسبب في مرض الطفل، وقد شاع أنها إن مشطت ريشه ووضعت الكحل في عينيه وألبست البوم قلادة من خرز وأسقته بعضا من حليب أم الطفل، فإن هذا سيجعل الطائر يرأف بحال الطفل ويبطل لعنته عنه، وقد قررت فعل ما

شرحته لكم سابقا أمام جدّي ليبارك الله في علاجها أمام حكيم مثل جدّي.

بعد سماعي لطقوسها مع البوم كدت أن أنبطح أرضا من شدة الضحك، لكن احترام الذين هم أكبر سنا منعني، فبلعت ضحكاتي لتظهر على وجهي علامات العَجَبِ والدهشة.

قال لها جدّي: دعيني أرى الطفل المريض بينما تمارسين طقوس أخوة الطائر مع حفيدك، اقترب جدّي من الطفل وفتح عينيه، ثم فمه ليرى لسانه، وبعد ذلك كشف عن بطنه ووضع يده على معدته ثم ابتسم.

عرفت من ابتسامته تلك أنه عرف داء الطفل، طلب من جدتي البقاء مع جارتنا التي من المستحيل إقناعها بأن ما تفعله هو محض خرافة، ودخل إلى غرفة التطبيب وناداني.

أدركت بأنه يريد صنع دواء للطفل، طلب مني برش صابونة زيت زيتون، وأثناء برشي لها سألته: لماذا لم تمنع الجارة من ممارسة تلك الطقوس ما دمت تعرف أنها خطأ، ابتسم وأجابني لو كانت أصغر سنا لحاولت إقناعها، ولكن فكرها أصبح معتّقا على ما نشأت عليه...

وفي هذه الحالة علينا الإنصات لمن مثلها، ما دامت طقوسها غير مؤذية لأي طرف كان، فكلامنا معها لن يجدي وما هو إلا هباء منثور، لذلك علينا إقناعها بالدليل وهو معالجة الصغير، سألته ما بال الصغير؟

قال: إن رأس المعدة لديه قد تمزق إثر سقوطه على بطنه أو لأن أحدا ما داعبه بقوة على بطنه فسبب ذلك له...

وقد يحدث أحيانا هذا التمزق إن حملنا الطفل على نحو مفاجئ، مما يتسبب في التهاب رأس معدته، وعدم بقاء الطعام فيه، ليتحول إلى استفراغ، ورويدا رويدا إسهال إثر حاجته للسوائل لكثرة الاستفراغ.

هل تعلمون؟ تلك اللحظة ركضت نحو معلمي وقبلت رأسه، ثم سألته ماذا بعد برش الصابون؟ قال: احضري بيضة وقليلا من مطحون الحلبة المحمصة وبعضا من الدقيق الأسمر، وخلط السابق كله وجعله على قطعة قماش...

ثم لفه على بطن الطفل الصغير وقال: اتركوه ثلاثة أيام وبعدها انزعوه ببطء وسيكون بخير بمشيئة الله.

كم شعر والده بالفرحة؟ وكان واثقا من وصفة جدّي التي أثبتت نجاحها بعد يومين فقط، أما جدّة الطفل...

أقسم كدت أذهب نحوها لأحتضن ذلك الطائر المسكين فقد عذبته وهي تكحل عينيه، وحزنت عليه من لحظتها، ولم أعد أخاف البوم بعدها، لكن منظره وريشه ممشط ومفروق من وسط رأسه أثار ضحكي وذكرني بهيئة بعض الموظفين الحكوميين قديما الذين يفرقون شعرهم من المنتصف، وكأنهم بهذا يكونون في أبهج حلة لهم.

اقتربت من الطائر وتأملت عيونه. سبحان الخالق! فيها ما يدهشك، ويجعلك تتفكر بعظمة الخالق.

الطريف في الأمر أن جدّي حذرها من عدم لمس فمه لأنه يأكل القوارض خوفا من انتقال لعابه لها، ورغم ذلك أصرت على صبّ رشفة من حليب أم الطفل في منقاره، ثم حررته.

شعرت لحظة تحريره وكأنه طليق قد فرّ من يد مشعوذة استمتعت في تعذيبه.

أدرك أن الخرافات لها سطوتها على الكثير في تراثنا ومنها ما يَعجَبُ العقل له، لكنني أؤمن بحقيقة واحدة ما وافق الصواب هو المنطق، تتلمذت على يد جدّي في بعض أسرار تطبيبه للناس وأدركت بأنه لم يعالج إلا بعد التشخيص، فإن عجز عن التشخيص قال: لا أعلم.

ومن قال: لا أعلم فقد عَلِمَ في رأيي.

(شلة حسبو)

نحتاج للابتسامة في حياتنا، للضحك لنتعايش مع و اقعنا بحلوه ومرّه، وكم أكره تفكيرنا العقيم عندما نستكثر الضحك على أنفسنا، بل نتوقع السوء بعد أن نضحك وكأننا جعلنا للضحك ضريبة! لقد اعتدت الجلوس بأعلى منحدر يطل على واد سحيق...

كنت لا أخاف المرتفعات لأنني اعتدت تسلق الأشجار، في كلّ مرة تحذرني جدتي –رحمها الله– من الجلوس هنالك، لكنني لم أرد، كان أحفاد جدّي من الأولاد دائمي التخطيط لإيقاعي في المقالب بدافع غيرتهم مني، ولا ألومهم حقا فمر افقة جدّي شيء يثير الغيرة والحسد...

بعد العصر جلست أنتظر غروب الشمس ومعي أدوات الرسم بنية رسم لوحة عن الغروب، كل مرّة أجلس مباشرة على التراب، لا أدري حقا ما الذي جعلني أجلس فوق قطعة من الكرتون ذاك اليوم، لم أعلم بأن (شلة حسبو)...

كنت هكذا أسميهم أولاد الأخوال يترصدون لي، يا إلهي! قمة الاسترخاء! كنت على تلك التلة مقابل بيت جدّي الذي كان ير اقبني، ولم أعلم، اقتربت منّي الشلة ورموا في حجري قنفذا،

فتفاجأت ولم أشعر بنفسي إلا و أنا أنزل المنحدر والتراب ينهار عليّ، كان نزولا سينمائيا وكأنني كنت أتزحلق مستمتعة...

نعم تأذيت بخدوش إثر ارتطامي ببعض الصخور وملامستي للأشواك، ولكنني تشبثت بالكرتونة وكأنها بساط السندباد، و انطلقت نحو المجهول لأصل إلى مستنقع أسفل المنحدر فأغطس في الطين وكأنني جندي خرج من بركة طين أثناء التدريبات، حقيقة لم أغضب منهم، لم أشعر لحظتها بأي وجع بعد...

نظرت فوق فإذا بجدّي ينادي: هل أنت بخير؟ أشرت له بأنني بخير وسرعان ما صرخت لاكتشافي وجود ضفدع على قدمي، منذ تلك اللحظة لا أطيق الضفادع ، أما عن أولاد خالي؛ فقد شعروا بالرعب لمجرد أن جدّي قال لهم: إياكم أن تتحركوا، ابقوا هنا لحين إخراج فايدة...

ربط حبلا في الشجرة ونزل لإخراجي، ما زلت أذكر كيف تلطخ وجه البدر طينا مني لأنه احتضنني بقوة وتسلق بي نحو الأعلى، كانت جدّتي تنتظرنا وسرعان ما أخذتني لأغتسل وتطمئن عليّ، قبل ذهابي توقعت أن يعاقبهم جدّي، لكنه حقيقة طلب منهم الذهاب لبيوتهم دون أن يوبخهم حتى، ثم رافقنا وبقي يعالج خدوشي برفق...

سألته لماذا لم توبخهم؟ قال: كانت ساعة غروب ولا يجوز توبيخ أحد مع غروب الشمس وصحو الشياطين، فقد يكسر

خاطره حدا يبقى معه ألم العقاب راسخا، أفضل أوقات العقاب هي في الصباح بعد وجبة الإفطار.

ضحكت وعرفت بأنه عقد العزم على تأديبهم، في اليوم التالي أفقت متأخرة من أوجاع الرضوض على صوت جدّي وهو يناديهم، لقد حضروا وكأنك لم تر أحدا بتهذيبهم وأخلاقهم، قال جدّي: فايدة بنت، والبنات يعاملن برفق ورقة وليس بقنفذ ودحرجة، كما أن ما فعلتموه خطير جدا، لذلك عليكم اللحاق بي، ذهبوا ناحية الحاكورة (البستان)، ورأيتهم ينفذون أمر جدّي بصنع شيء لم أميّز بأنه أرجوحة معلقة إلا بعد أن ناداني جدّي للاستلقاء عليها، وطلب منهم الثلاثة التعاقب على هزّي وتحريك الأرجوحة بي، إضافة لتنفيذ أوامري لحين غروب الشمس...

شعرت برأسي يثقل من شدة الكبرياء هههه، لقد ردّ لي حبيبي اعتباري، لم أتطلب كثيرا كثيرا، فقط جعلتهم يكنسون ساحة البيت، ويحضرون لي ما لذّ وطاب، إضافة لحلّ واجباتي المدرسية، وإحضار العليق لي، وهو توت بريّ ينبت وسط الأشواك، لقد كنت متسامحة حتى أن جدّي طلب مني الترفق بهم، وقال: لقد أنهكتهم، كم ضحكت أنا وجدّي وقتها، وبعد أن غربت الشمس احتضنهم جدّي وقال: رفقا بالبنات رفقا... ثم أهدى كلّ واحد منهم منظارا وأدوات صيد كي ينسوا عقابي لهم... كم أشرقت عيونهم فرحا! ليأتي دوري بأن أعطيهم السكاكر كما أوصاني جدّي، لقد صافحوني وهم ينفخون صدورهم، وقالوا

لي: أنت في حمايتنا منذ الآن ولن نؤذيك فنحن رجال، وأنت بنت ضعيفة، غمز لي جدّي بأن أشكرهم، فشكرتهم قائلة: الله محييهم أحلى رجال! لن أقول لكم بأنهم تابوا بعدها، فبعد يومين وضعوا لي الفلفل الحار مع العصير! وعوقبوا بمثل ما فعلوا!

ليتنا لم نكبر.

صدفة

أعشق الصدفة جدا، ولديّ قناعة بأنها هدية من القدر، ومن أجمل الصدف في حياتي أنني رأيت المروءة بأمّ عيني في زمن طغت فيه الخسّة على المروءة، و أقول طغت فقط، لكنها لم تقض عليها فما زال الخير موجودا وحسن الخلق وإن شاع الشرّ وكَثُرَت الخيبات، لقد ركبت الخيل مع جدّي، وذهبنا لجمع بعض الأعشاب البريّة، وقد اعتادت العائلات الذهاب للبريّة بُغية التنزه، كان منظرا يسرّ الناظرين، الناس تضحك بحق، وتستمتع بخلق الله، بينما أصبح استمتاعنا اليوم محصورا بـ(المول) المركز التجاري وبكل مظاهر الحداثة التي تخلو من رائحة الطبيعة...

انزويت أنا وجدّي مبتعِدَين عن الناس لجمع الأعشاب، لنصادف شابا عرفه جدّي؛ كان يصور، ألقى عليه جدّي التحية وسار معنا قليلا يتبادل أطراف الحديث مع جدّي، فجأة سمعنا صراخ فتاة كانت قد علِقَت بسياج يفصل أرضا زراعية عن باقي المروج من البريّة، هرَع الشاب وجدّي نحوها، يا إلهي! تسبب السياج في تمزيق ثوبها الساتر لصدرها، وذراعها وساقها، وكانت تبكي وتضع يدها على صدرها لتستره، تراجع الشاب للخلف وخلع قميصه، وناوله جدّي كي يضعه على بدن الفتاة، لكنّ جدّي ناداه

وطلب مني التنحي جانبا لأنه رأى قدمها تنزف دما، وقال للشاب: أنا سأوسع السياج، و أنت اسحب الفتاة برفق و انتبه لقدمها، كانت تبكي وترتجف.

اقترب الشاب وما زلت أذكركم كان حييا وجاهد لغض البصر ما أمكنه، بالفعل تم تحرير الفتاة وقمت بإعطائها القميص وسرعان ما غطت نفسها به، ابتعد الشاب قليلا، أما جدّي نظر لقدمها وقال: هي مجرد رضة قوية لا كسر فيها ولله الحمد، وسألها أين أهلك؟ أشارت للناحية الأخرى خلف التلة، وقالت: أردت جمع الزهور البرية، ولم أنتبه للجرف قرب السياج فتعثرت به لأعلق في السياج وهذا منذ ربع ساعة تقريبا، رأى جدّي من بعيد مجموعة من الأشخاص، فعرف أنهم يبحثون عنها، فأعاد القميص للشاب وطلب منه الابتعاد مباشرة.

لم أفهم السبب إلا لاحقا، ثم طلب مني نزع وشاح عنقي وأعطاه الفتاة لتضعه على صدرها، ولوّح بيده للناس من بعيد، وعندما اقتربوا كانوا فزعين خوفا عليها، بدأ أبوها وأخوها بالسبّ والشتم عليها لماذا ابتعدت عنهم، لكنّ جدّي أخبرهم، بأن يترفقوا بها بدلا من التوبيخ لأن قدمها مصابة، أمسكها والدها من يدها وهو يتمتم: لن تخرجي بعدها، ابتسم جدّي وقال لوالدها: أيّ شخص معرض للوقوع واحمد الله أنها لم تتأذ أكثر، شكر الرجل جدّي بعد أن تعارفا، وعندما سمع الرجل اسم جدّي ابتسم وقال: الحمد لله أنك من أنقذها، ثم غادر.

عدت مع جدّي، الذي نادى على أحمد وهو الشاب الذي خلع قميصه لتغطية بدن الفتاة، وقال له: هل أدركت لماذا طلبت منك الابتعاد؟ ابتسم أحمد وقال: نعم، لو رآني والدها لظنّ بها ظن السوء، ولا تعرف وقتها إلى أين سيقوده غضبه، صفق جدّي له وقال: أحسنت، فمن حكمة الإنسان بعد النظر، وتدارك الشرّ قبل وقوعه، ورغم أن الدين نهانا عن سوء الظن إلا أننا نميل له وللتسرع في الحكم على الأمور، فتح جدّي ذراعيه واحتضن أحمد وقال له: لو أن فايدة كبيرة لزوجتك إياها، كم شعرت بالحرج، واختبأت خلف جدّي، بل قرصته لماذا قال ما قال.

نظر لي أحمد وقال: ليتها، وضحكا معا، و أنا ذبت من كلامهما، بعد فترة سمعنا عن تلك الفتاة بأن والدها منعها من الخروج من البيت، لأنها ضاعت!

ما هذا التخلف؟ أين ضاعت؟ هل نحن في شيكاغو مثلا، فقط وقعت عالقة في السياج، كما أن الله ستر الأمر، فلماذا كبّروه وفضحوها بشائعات تتفنن مجتمعاتنا في تأويلها، سمع جدّي عن الأمر وتأسف على هكذا عقول، لكنّ الأجمل هو مروءة أحمد الذي قَدِم لجدّي ليرافقه وأهله لخطبة تلك الفتاة، وكأن قلبه رقّ لحالها فأراد تخليصها من غياهب جهل الأهل، فاحتضنه جدّي وسار معه في جاهة خطبتها، طبعا و افق والدها مباشرة ليخلص من همها، فكما شاع عند الكثير من أمثاله (هَمُّ البنات إلى الممات).

تبا لحمقهم! بدلا من أن تندب حظك بأنك رُزِقْتَ ببنت أحْسِنْ تأديبها وتربيتها فقد تدخلك الجنة!

تزوج أحمد من سارة، وجعلها تتم تعليمها وللآن ما زلت على علاقة بهما، وأعتبرهما مثالا رائعا للخير.

فلا يضيء النجم إلا وسط العتمة.

رحمك ربي يا معلمي، وتحية لسارة وأحمد اللذين هما بمثابة أمي و أبي.

الكلمة الطيبة

شاع عند البعض زواج اسمه زواج البدائل، وهو أن أزوجك أختي مقابل أن تزوجني أختك، باب من أبواب الزواج التقليدي ومتعارف عليه قديما، أما الآن فأظنه دُفِنَ في طيات النسيان مع الحداثة والتطور.

كنت في الثالثة عشرة قبل سنوات ليست ببعيدة، وقد كان مثل هذا الزواج على وشك الانقراض، فما بالكم الآن مع غزو (الانترنت) لحياتنا والتي ساهمت في تغيّر كثير من العادات و أنماط التفكير لدينا...

أذكر عندما طُرِقَ باب جدّي بقوة حتى ظننت أنه خُلِعَ لحظتها، كان الوقت بعد المغرب، أمرني جدّي بعدم الخروج أبدا لأنه أدرك أنّ الأمر عظيم، بقيت قرب النافذة بصحبة جدتي– رحمها ربي– دخل شاب وهو يحتضن فتاة مغطاة بعباءة، كانت علامات الفزع بادية على وجهه، وقال لجدّي: أنا داخل عليك.

والقصد من ذلك أنه استجار بجدّي كي يحميه من أمر ما، ردّ عليه جدّي: أبشر، فقد وصلت و أنت بحفظ الله أولا ثم بحفظنا، أخذ الشاب نفسا عميقا ثم أمره جدّي بالجلوس هو وتلك الفتاة التي أزاحت العباءة عنها عندما شعرت بالطمأنينة، وأمالت

كتفها عليه، أحضرت جدتي لهما الماء والطعام، وتركتهما قليلا لوحدهما، أمرنا جدّي بأن لا نسألهما عن شيء حتى يفصحا هما عن سبب حضورهما، ثم عاد لهما وسأل الشاب: ما علاقة الفتاة بك؟ قال: هي زوجتي بشرع الله.

ابتسم جدّي وقال: ادخلا لغرفة الضيافة واستريحا، رفض الشاب الدخول حتى يحدّث جدّي بسبب حضوره، قال جدّي: إن كانت هذه رغبتك فأنا منصت لكما، عرّف الشاب عن نفسه وقال: اسمي حسن وهذه زوجتي ليلى وقد تزوجتها قبل عام وتزوج أخوها أختي، وقد أقمنا فرحا مشتركا لكلينا تلك الليلة، ومنذ تزوجتها تعلق قلبي بها وأحببتها وأحبتني رغم أننا لم نعرف بعضا قبل ذلك...

ولكن أختي لم تطق زوجها، وتركته بعد ستة أشهر مهددة بحرق نفسها إن بقيت معه، ليأتي أهل ليلى وأنا في عملي ويأخذونها من بيتنا في اليوم التالي لترك أختي زوجها، بحجة أن علاقة النسب بيننا انتهت بانتهاء زواج أختي من أخيها، ومنعوني عنها، بل هددوا بقتلي إن لم أطلقها، لكنني صممتُ على عدم تطليقها؛ إذ تعلق قلبي بها ولا ذنب لنا بفشل زواج أختي وأخيها...

حاولت جاهدا إقناعهم لكنّ والدها وأخاها عنيدان، هي زوجتي بشرع الله وعندما أخذها أهلها لم تكن حاملا، فقد بقيت عندهم مدة ثلاثة أشهر دون أن أراها، وبعد هذه الفترة، صادفتها في الشارع العام وهاجت الأشواق إليها وكانت بصحبة أختها

الصغيرة، فتحادثنا وبكت شوقا، واستحلفتني بعدم تطليقها؛ لأنها أحبتني كما أحببتها، انزوينا بعيدا عن الناس واحتضنتها و اتفقنا على اللقاء يوما بعد يوم في بيتنا بحجة أنها تزور صديقة لها، وكما تعرف يا أبا طاهر هي حلالي وزوجتي، وقد أتممت اللقاء بها لقاء الأزواج، فما بالك بزوج مشتاق!

ليقدر الله أن تحمل في رحمها طفلنا، وكان لا بدّ لها من إخبار أمها بالأمر لأن الحمل لا يُكْتَم، فثارت أمها غضبا وأخبرت والدها وأخاها اللذين أرادا قتلها على أساس أنها فرطت بشرفها!

أيّ تفريط وهي زوجتي بحقّ الله وهذا عقد زواجنا! وأيّ ظلم هذا؟!

لقد هربت قادمة إليّ وأعلم بأن هذه العقول لا يروضها القانون وإن لجأت له، لذلك هداني الله للحضور لك، جعل ربي فرجنا على يديك.

كم توجعت لحالهما! وكم تعجبت من هكذا تخلف!

ابتسم جدّي كعادته، وقال استودعتكما ربي في بيتي، ثم ارتدى ملابسه وخرج، فارتعبت جدا وخفت عليه من ثورة غضب تلك العقول، ولم أنم، بقيت أنتظره لقبيل الفجر، كان قد ذهب لأهلها ليخبرهم بأن ابنتهم في جواره وأنها وزوجها دخيلة عليه، وحياته هي ثمن المساس بهما، رغم بعض التخلف في بعض سلوكياتنا إلا أن الجميل بأنهم يحترمون المواثيق والعهود العشائرية ويدركون حقّ الدخيل، عَلِمَ جدّي أن الداء في قصتهما

هو في أخيها الحاقد لفشل زواجه ورفض الفتاة له، فاستدعاه وسأله: هل تستلذ في زوجتك وهي راغبة عنك أكثر أم وهي راغبة فيك، صمت الشاب ثم قال: طبعا أريدها أن ترغب في قربي، ردّ جدّي والذي لا يرغب بنا ، هل من الكرامة أن نرغب به إن عافنا قاصدا؟!

خجل الشاب وردّ: لا، فأعاد جدّي سؤاله وقال: هل يُؤْخَذُ بريء بذنب آخر؟ فثار الشاب غضبا وقال: يجب أن تدفع ثمن تركها لي هي وأهلها، فابتسم جدّي وقال: هي دفعت الثمن بمجرد أن تركت شابا شهما مثلك. يا إلهي! كم للكلمة الطيبة من أثر على النفوس.

هدأ الشاب و ابتسم، ثم قال جدّي غدا سأزوجك من خيرة الفتيات، وثق يا بنيّ أنّ لا خير في بقائكما معا، وأن الله سيرزق كل واحد منكما من فضله، فدمعت عينا الشاب واستغفر ربه، ووعد جدّي بأنه سيشرح لوالده الأمر وأنهما لن يؤذيا أخته، فاحتضنه جدّي وقال: اليوم طعام العشاء عندي وسيكون بادرة صلح بينكم. وهذا ما حدث...

هدأت النفوس بكلمة طيبة، و أنجبت ليلى بعد فترة ولدا سموه محمدا على اسم جدّي، وتزوج عامر أخو ليلى من فتاة رائعة، خطبها له جدّي بعد فترة...

جمعينا نكون ملائكة بالكلمة الطيبة إن قيلت بأسلوب طيب وجميعنا وحوش عند الغضب! نحتاج فقط لسعة الصدر

وقلب حكيم يحتوينا وبهذا تتبخر مشاكلنا... تسامحوا فإن كان قبيلكم أحمقا كونوا الحكماء، وإن كنتم أنتم الحمقى إثر الغضب أو التسرع؛ فأدعو الله لي ولكم أن يلهمنا سعة الصدر وييسر في دربنا الحكماء من أصحاب الكلمة الطيبة كالعسل، وتذكروا قول الله تعالى: {ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم}. آل عمران، 159.

غيرة

غيرة النساء وما أدراكم ما غيرة النساء؟! لقد تزوج جار لجدّي من زوجة أخرى لأن زوجته لم تنجب، والطريف في الأمر أنه رُزِق بطفلين؛ الفارق بين كل منهما أسبوع واحد فقط من كلا الزوجتين، لأسمع جدتي –رحمها الله– تعلق بلهجتنا المحكية قائلة (الغيرة تُحَبّل النسوان).

ضحك جدّي وقال: بل تفعل أكثر! طبعا لا بدّ من أن أستفسر لأشبع فضولي، مجرد أن نظرت لجدّي عرف، وقال: أنصتي أنت والغالية وقصد جدتي –رحمها الله– لما سأرويه لكما...

لقد تزوج شاب أعرفه منذ فترة من ابنة عمه، دون أن يعلم أنها راغبة عنه، فبعض العوائل لا تستشير الفتاة باعتبار أن ابن العم أحقّ بها من غيره، وليلة الزفاف تجرأت وقالت له: أنت مثل أخي، ولا كرامة لك إن أخذت مني ما لم أعطِك إياه راغبة...

طبعا جلّ ما أدركته وقتها أنها لم ترغب به زوجا، فتحمست جدتي وقالت: أكمل.

لن أنسى ضحكته وقتها، وهو يلاطفها قائلا: سأُكْمِلُ يا مَنْ لا يَكْمَلُ العمر دونها، ابتسمت واضعة يدي على فمي وعلقتُ، يا

عيني على قيس وليلى! ودعوت الله بأن يحفظهما ولكنّ الموت أمر حتمي نهاية المطاف، رحمهما ربي.

تابع جدّي قائلا: لقد غضب أيمن من ابنة عمه وعفّت نفسه عنها لأنها رفضته وحفظا لماء وجهه وكرامته، ولكنها عِرْضه و ابنة عمه ولا يستطيع تطليقها خوفا عليها واحتراما لعمّه، لذلك عاهدها بأنها ستكون كأخته تنام في غرفة وهو في الأخرى، ولن يبوح لأحد بما بينهما وأنهما أمام الناس سيمثلان دور الزوجين! وبعد مضي عام سيرى الحل المناسب في أمر تحريرها، لم يعلم تلك الليلة بأن موقفه هذا أوقع حبه في قلبها، وكأنها أبعدته ليقترب!

سبحان مؤلف القلوب! لكنها عنيدة، فلم تعترف له ولم تشعره بندمها، تعلق قلبها به يوما بعد يوم بعد أن سبرت غور روحه أكثر و أكثر لتجده من خيرة الرجال...

لم يجرحها ولم يقصّر في حق لها أبدا، لا بدّ أنه كان حزينا مجروح القلب لرفضها له، لكنّ الكبرياء منعه من أن يضعف أمام خلوتهما، فالشيطان لا يحضر بين الأزواج لأن الحلال جمعهما، بل يستلذ بالتفرقة بينهما ويسعده أن يكون الثالث بين امرأة ورجل غريبين عن بعضهما!

لذلك ولّد هذا البعد جفاء في قلب أيمن ناحية فاطمة ابنة عمه، وبقي الحال هكذا مدة خمسة أشهر ونار الشوق والحسرة تأكل فاطمة كلّ ليلة، ليأتي يوم يقول فيه أيمن لفاطمة: لقد

وجدت السبيل لتحريرك مني، فمن حقك اختيار من تميل له نفسك، فليس من المعقول أن نبقى هكذا، فشعرت بغصة في قلبها فهي لا تريد التحرر من قيد حبه الذي كبّل كل أنملة فيها، فابتلعت الغصة وسألته بكبرياء الحمقى: وكيف ذلك؟

قال: سأتزوج.

لم تتمالك نفسها وقامت غاضبة تصرخ: تتزوج! هل قلت تتزوج من أخرى!؟ ضحك وقال: عجيب أمرك، نعم سأتزوج، فأنا رجل أحتاج لزوجة لا لأخت وفي نهاية الأمر أريد أطفالا، و أنت من رغبت عني!

جلست خائرة القوى، والندم يأكل جوفها وقالت: وماذا بعد زواجك؟

قال: تغضبين وتطلبين الطلاق وهكذا أكون أنا الجاني ولن يلومك أحد.

لم تنم تلك الليلة فاطمة، فقد أكلتها الغيرة على حبيب قلبها، وبقيت تفكر في أمر مصارحته بحبها له، لكنها خافت من رفضه لها كناية بها لأنها رفضته، ولو فكرت قليلا لأدركت بأن من يمتلك أخلاقا ورجولة كأيمن لن يفعل ذلك أبدا، لذلك قَدمت لي..

قاطعت جدّي وقلت: هل قدِمت لك؟

ضحك وقال: نعم، ألم تفكري كيف عرفت القصة؟! فنكشت رأسي بأصبعي وقلت: نعم، نعم، كم أنا غبية!

نهاني عن قول ذلك، وقال: بل لم تحللي الموقف جيدا، فلا يوجد إنسان غبي إلا لمرض ما، ولكن يوجد إنسان لا يستخدم عقله! لذلك احرصي على استخدامه يا لبيبة! فعلقت جدتي: نعم، تذكرت عندما قَدِمت لك، فقد شعرت بالغيرة وقتها لأنك لم تخبرني من هي؟ ولماذا جاءت؟ ضحك جدّي قائلا: نعم لقد شعرت بغيرتك التي تحولت لجفاء بعد أيام، لكنني عذرتك وزدت فيك حبا.

خجلت جدتي وخجلت معها ولا أدري لماذا؟!

تابع جدّي قائلا: كل شيء له وقته، وها قد حان موعد معرفتك لسبب قدومها، ففي ذاك الوقت تطلب الأمر السرّية، جاءت إليّ وشرحت كل الأمر، وبكت بحرقة خوفا من أن تخسره، سألته: ماذا فعلت لأجلها؟ قال: نصحتها بكيد النساء والاعتراف له في ليلة هادئة بعد وجبة عشاء طيبة وهي في أبهج زينتها، ضحكت جدتي، أما أنا فقد طلبت مزيدا من التفاصيل، طلب مني جدّي الاقتراب وقال: فايدة أنا أحبك! ملأ الفرح قلبي، وكأنني لا أعلم أنه يحبني واحتضنته، ضحك بشدة وقال: هل رأيت ماذا يفعل الحب والإفصاح عنه؟ يلين القلوب ويسعدها، فما بالك بالحب بين رجل وامرأة بعد انحباس الوصال بينهما! ما يقتل معظم علاقاتنا هو كبرياء أحمق يمنعنا من الإفصاح عما يجول في دهاليز القلوب، أحبك كلمة قد تحيي قلبا مات، وقد تعمر بيتا أوشك على الخراب.

لا تبخلوا على بعض بالحب، فيضيع العمر بين كنت ولكن...

لو كان الحب خفاء لما سمعنا نبض القلوب! وكم من علاقات انتهت بين حيرة وسوء فهم!

حمام زاجل

أجمل ما في الحب أنه يأتيك، فأنت لا تذهب إليه، يتسلل لقلبك حتى أنك تكاد لا تتذكر متى أو كيف أحببت؟! وقد جرت العادة في أعراسنا بأن نعجن حناء العروس لتوزع على الحضور بعد تزيين كفي العروس بها، أذكر كنا نعجنها بقدر كبيرة ونخلطها بماء الورد والكركديه وأوراق الجوري، كان لونها فاتنا...

كانت سهرة زفاف أحد أقاربي، وكنت أر اقب الفتيات وهنّ يجهزن الحناء، كانت سلوى ابنة الجيران ماهرة في تجهيز الحناء، حضرت تلك الليلة لتجهزها وهي ترتدي حجابها، ما أجمل عفة الفتاة!

شعرت بحرّ شديد وهي تعجن الحناء فقالت لي: فائدة أغلقي الباب كي لا يدخل علينا أحد غريب، ثم انزعي حجابي عني جانبا، لا أخفيكم كانت جميلة بحق، ولم نكن نعرف أن فارسا وهو أحد أقاربي سيدخل علينا فجأة دون استئذان أو طرق للباب...

صحيح كان البيت عامرا بالناس، ولكن وَجَبَ عليه الاستئذان، فأنت لا تعلم ما حال غيرك خلف الأبواب، فجأة فُتِحَ الباب، فصرخت سلوى لأن حجابها منزوع ودون شعور غطست وجهها بقدر الحناء حياء كي لا يراها، تسمّرَ فارس أمام الباب

وأنا وضعت يديّ على خاصرتي وضربت بقدمي الأرض وبدأت بتوبيخه، لكنه لم يسمع فقط تسمّرَ، أمسكته من يده وسحبته خارج الغرفة، فصادف حضور جدّي الذي وبخه بقسوة لأنه انتهك الحُرُمات وأنه هذا فعل غير لائق...

كان جدّي يحادثه وهو في عالم آخر، لم نكن نعلم وقتها بأن سهم الحب قد أصابه، وأن ما فعلته سلوى من ردة فعل قد أثارت إعجابه نحوها، هزّرأسه معتذرا من جدّي وسحبني بقوة، وعرض عليّ السكاكر مقابل أن أخبره من هي؟!

لا أخفيكم كانت السكاكر شهية، لكنني عاندته وقلت: لا يجوز دون أن أستأذن الفتاة وجدّي، قطّب حاجبيه ورجاني أن يكون سرا بيننا وأنه سيضاعف كمية السكاكر، بقيت على موقفي، نظر لي وقال: ما صلة القرابة بينك وبين الحائط؟ قلت: إنه أنت! وبالتالي هو قريبي...

عض أصابعه غيظا وغادر، دخلت على سلوى وهي تغسل الحناء عن محياها الذي أصبح برتقاليّ اللون قليلا بسبب الحناء، سألتها لِمَ فعلت ذلك؟ قالت: حتى لا يقع نظره عليّ، أعجبتني تلك السلوى! نحن في زمن تتقصد فيه الفتاة بأن يقع نظرك ليس على وجهها فقط بل على ما هو أعظم!

سألتها: هل أعجبك فارس؟ قالت: ومن فارس؟ أجبتها: الذي غطست وجهك في الحناء بسببه! شعرت بحمرة الخجل تغزوها وهي تتمتم اسمه؛ فارس! قلت لها بمكر: نعم فارس الأحلام يا

سلوى، قامت كي تقرصني، لكنني هربت ذاهبة لجدّي وأخبرته بما حدث، فابتسم وقال: أحضري لي فارس.

ذهبت وناديته، و أثناء مسيرنا سألني: هل تعرفين سبب طلب جدّي لي؟ ابتسمت مستغبية وقلت: ربما يريد أن يضع لك حناء على وجهك! نظر لي وقال: لقد تماديت، وسأعاقبك، قلت له: افعل إن استطعت.

سبقته لجدّي واختبأت خلفه، أجلسه جدّي وقال له: لِمَ سألت فايدة عن فتاة الحناء؟ نظر لي نظرة توعد وتهديد و أنا أبتسم، أجاب: فقط أردت معرفتها لأن سلوكها أعجبني، سأله جدّي: سلوكها أم جمالها؟ ردّ فارس بعفوية: هو أنا في الأصل رأيت شيئا من شكلها؟ ليتني!

رمقه جدّي موبخا ليصوب كلامه قائلا: أقصد أنني غضضت البصر ولم أر شيئا منها، فأشرت له و أنا خلف جدّي بأنه غير صادق، فابتسم بحقد وتحلّف لي.

أمسكه جدّي من كتفيه وقال: اتبع قلبك إن هي أعجبتك، وسأخطبها لك لو عرفتها دون مساعدة فايدة، ردّ متعجبا: وهل أعرف الغيب؟ كيف سأعرفها؟ قال جدّي: شغّل عقلك.

وخرجنا لنتركه سارحا.

مرّ أسبوع وفارس ما زال يبحث عن فتاة الحناء، ويحاول تقديم الرشوات لي دون جدوى!

رأيته جالسا على ناصية الطريق، مرت مجموعة من الفتيات من بينهن سلوى، أردت مساعدته على نحو غير مباشر لكنّ قلبيهما سبقني، فقد كانت هي الأخرى هائمة تفكر فيه...

ابتعد قليلا عن الطريق كي تمرّ الفتيات دون حرج لتتعانق عيناه مع عيني سلوى، وكأن العالم لحظتها كفّ عن الدوران لأجلهما، نظر لي وقال: هي صح يا فائدة؟

ابتسمت وقلت عامدة: مرحبا بسلوى ابنة الجيران وفتاة الحناء، فخجلت وسارعت في مشيتها، فنظر لي وقال بعفوية: ما أجملها!

ضحكت وقلت: هل سأعجن حناء زفافك قريبا؟ رفع يديه للسماء داعيا: يا رب، بعدها كنت الحمامة الزاجلة بينهما لنقل مراسيل الحب، وقد تورم وجهي لكثرة تقبيلها لي، وتورم جيبي من كثرة سكاكر فارس لي!

ما زلت أشعر بدقات قلبيهما، ولمعة عيونهما، كان يزداد وسامة بحبها وتزداد هي نضارة بحبه، بقي حبهما عاما في طي الكتمان إلى أن تخرج فارس من الجامعة، والتحق بالجيش ليخطبها وهو قادر على إدارة بيت الزوجية وتحمل أعباء الزواج، أما هي فقد كانت في سنتها الجامعية الأخيرة...

حضرت زفافهما وتصورت معهما، والغريب أن جدّي عندما دخل للمباركة لهما، غمز لي وقال: انتهت مراسيل الحب...

ظننت أنه لا يعرف، ثم عدت بذاكرتي وضحكت فقد كنت أستأذنه قبل الذهاب لهما، وتيقنت أنه كان يعلم أين أذهب، وماذا كنت أفعل؟ اقترب منّي وقال: حمامة قلبي أنت.

أحبك وسأبقى رحمك ربي...

طبيب قلبي

عندما تحب شخصا ما، لا شعوريا يولد بينكما رابط روحاني عجيب، و أقصد بذلك كل العلاقات ولا أحصر العاشقين في هذه العلاقة الروحانية، وهذا ما حدث بيني وبين جدّي، هذه المرحلة من الشعور عجيبة تفوق المنطق ذاته، وأعجب من الخيال، وأحيانا نعجز عن تفسيرها، لقد انشغل جدّي بصنع جبيرة لصديق له تزحلق وكُسِرَت قدمه، وطلب مني أن لا أبتعد و أبقى قريبة، شعرت بالملل قليلا، وذهبت خلف السور باحثة عن أسلاك، فقد كنت من عشاق تطويع الأسلاك، وتشكيل الزهور أو الألعاب منها، رأيت ابن الجيران وقد تسلق السوروبكي لأنه لا يعرف النزول عنه...

اقتربت منه وهدأته قليلا، وقلت له: انتظر سأصعد لإحضارك، كان في الرابعة من عمره، بالفعل تسلقت واحتضنته كي أنزله بهدوء، ليصادف مرور أخيه الكبير ليلتقطه مني ثم ذهبا، بقيت فوق السور، ولم أنتبه لصعوبة القفز عنه بسبب كثرة الزجاج والأسلاك والمسامير أسفله...

هل تعلمون؟ إماطة الأذى عن الطريق بحق واجبة لكننا لا نعتبر، كان السور محاذيا للشارع والكل يلقي فيه أذاه.

قفزت من فوق السور لتقع قدمي على مسمار، وكأنه تحضر ليغرس نفسه في أسفل قدمي، متكرما عليّ بكامل طوله داخل قدمي فلم يبق إلا رأسه متحسرا أنه هو الآخر لم يخترق قدمي، وجع جعلني أفقد صوابي، لكنني عند الألم لا أصرخ ولا أبكي بصوت مرتفع، فقد علمني جدّي أن الصراخ يضيع طاقة الجسد ويضعفها أمام الألم، وبالتالي يتضاعف الشعور بالألم عند الصراخ، وكأن جدّي سمع نداء روحي له، لقد جاء راكضا وهو يناديني هل أنت بخير؟

رأى دموعي تنهمر بصمت، فحملني بين ذراعيه، وقال لي: سآخذك للمشفى لأن المسمار اخترق باطن قدمك بأكمله، ولن أطيق وجعك فأنت تحتاجين مخدرا لنزعه، نظرت له قائلة: لن يشفق عليّ قلب الطبيب أكثر منك، فأنت طبيبي ولن يعالجني غيرك، أثق بك يا جدّي، أثق بك ولن أشعر بالوجع وعيناك تعانق عيني، شعرت بعينيه كادت تدمع واحتضنني قائلا: لقد تعلمت منك اليوم درسا يا فايدة، أنّ الثقة بين الأحبة تذيب كل شيء، أخذني برفق وجعلني أستلقي ونادى جدتي، وطلب منها تحضير المعقم، وما يلزم من أدوات، والبقاء بجانبي وقت نزع المسمار من قدمي...

اقترب مني وقال قولا يجعلني أصنع من الوجع فرحا باقي عمري، قال: عانقي الفرح بصورة من تحبين فالألم لا بدّ زائل. وما أن أنهى كلامه حتى عانقت الفرح في عيني جدّي وجدّتي، اللذين

أعانق الفرح في عينيهما الآن، وأنا أكتب حروفي هذه دامعة شوقا إليهما. لم أشعر إلا به وهو يقول: سأكره كل مسامير العالم لأجلك يا فايدة ممسكا المسمار بيده، لم أشعر بالألم أبدا. حتى في الأيام اللاحقة لتعافي قدمي، كان لا يفارقني ويتقصد إضحاكي بكل السبل، بل ماذا فعل؟ أحضر لي مجموعة من المسامير كي أجتاز عقدتها ودقها على لوح خشبي، وأحضر لي كرات من خيوط الصوف الملونة وطلب مني تشكيل قوس المطر منها بألوانه الساحرة، جعل مصدر الوجع فرحا...

وأنتم كذلك؛ اجعلوا أوجاعكم أفراحا، فمن رحم الضيق يأتي الفرج.

رحمكما ربي يا نور عينيَّ.

جمال الروح

مهما بلغت الفتاة قدرا من الجمال يصبح هذا الجمال مبتذلا عاديا في عين من يراه دوما ويمتلكه، ويبقى الجمال الأكثر رسوخا في دوام العلاقات هو الجمال الروحاني، وللعلم ليس الكلّ فينا بقادر على إدراك هذا النوع من الجمال، فليست كل القلوب لها عيون، ولن أكون مثالية وأغفل أهمية الشكل، فلو كانت الورود قبيحة لما أحببناها، ولكنّ قمة الرقي أن نبحث عن شريك جميل الروح قبل الشكل، وهنيئا لنا إن وجدنا الكمال فيه، فالكمال في عالم الإنسانية هو أن أشعر في الإشباع نحو من أحبهم، فيكتملون في عيني، فلا أعود أرى عيبا فيهم، بل تستهويني عيوبهم، وهذا ما يسميه البعض الحب الأعمى، فأنا أحب حبيبي بعيني لا بعيونكم، لذلك أعجب ممن يتدخل في العلاقات وينتقد حال العاشقين، وكيف رضي فلان بفلانة أو العكس، هو رآها بعين قلبه، وهي كذلك، فاتركوهم من عيونكم فقط.

وهذا ما حدث مع شاب جاء باكيا لجدّي كي يساعده، كنت أجلس في الحديقة أزرع بذور المشمش بعد أن أكلته، ليأتي شاب وسيم الطلة ما زلت أذكر حسن وجهه، شعرت لحظتها أنه بطل من أبطال المسلسل الكرتوني (ليدي ليدي) لشدة وسامته.

اقترب مني وسألني أين جدّك؟ قلت له: تفضل واجلس، سأذهب كي أناديه، كان جدّي في فترة قيلولته ورغم ذلك كان يوصيني إن جاء أحد يريدني أيقظيني مباشرة، لعلّ أمره طارئ.

دخلت كي أوقظه برقة كما يفعل معي، فداعبت وجهه بريشة طاووس كنت أضعها بين الصفحات عندما أقرأ، لم يفق مباشرة فقد أثقل التعب كاهله، إذ عالج الكثيرين صباح ذاك اليوم...

رقّ قلبي ولم أستطع إيقاظه، وهنا أخطأت، لذلك لا أعجب من عظمة ديننا بعدم تفضيله استلام النساء للحكم والولاية، فحقيقة؛ تميل فينا كفة العاطفة على كفة العقل والصواب، فلا نرى الأمور كما يتوجب لها، كالأم التي تدلل ابنها بعاطفتها وتغفل أهمية الحزم حينا في عدم إفساده، عدت للشاب واعتذرت منه بأن جدّي نائم، يا إلهي! رأيت الخيبة في عينيه، طلبت منه العودة بعد ساعة، لكنه قال: لن ينفع ذلك، وغادر.

شعرت بغصة وتأنيب ضمير، و انتظرت أن يستيقظ جدّي لأخبره، وبالفعل أخبرته، فغضب مني عندما قلت له: بأن الشاب قال: عودته لا تنفع.

وبخني قائلا: كان مضطرا والمضطر لا تُرد حاجته يا فايدة، فأنا قادر على تعويض نومي، ولكنه عاجز عن تعويض زمن قد يفرق في مصير أمر ما لديه!

حزنت جدا وخرجت لأبحث عن هذا الشاب، وبدأت بوصفه للناس، تعبت حتى وجدت منزله أخيرا، رأيته ممسكا حقيبة

السفر وأمه ترجوه باكية أن يعدل عن سفره، لكنه رفض بشدة وغضب ومشى مغادرا رغم النداءات، فلحقته بهدوء، نظر لي وقال: عودي.

كان في حالة غضب ولا بدّ من حيلة لإحضاره إلى جدّي، فكرت ثم ادعيت السقوط أرضا والتواء كاحلي، اقترب مني وقال: عودي، أجبته أنني عاجزة عن المشي، نظر لي، ورمقته بنظرات بريئة لا تُقاوم لأقنعه بحالتي، في هذا الوقت، كان جدّي يبحث عني، فقد خاف إن زاد حدا في توبيخي.

و افق الشاب على إسنادي على كتفه و إيصالي لبيت جدّي ولحسن الحظ قابلنا جدّي في منتصف الطريق، وقد فَزِع لعرج قدمي، لكنني ما إن رأيته قفزت نحوه، وقلت: هذا هو الشاب لقد أحضرته لك! فتح الشاب فمه وقال: محتالة صغيرة، أدرك جدّي الموقف وضحك بشدة، دعا جدّي الشاب لبيته وقال: ما قصتك؟ ردّ بنبرة حزن: لم يعد مجديا حديثي. فأجابه جدّي: لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرا.

وكأن السكينة نزلت على قلب الشاب فجأة، وبدأ بالبوح قائلا: إنه أحبّ فتاة من عائلة بسيطة، تعمل في مزرعتهم، سمراء البشرة متواضعة في نظر أهلي لا ترتقي لمستواي، مع العلم أنني لم أتم دراستي وهي كذلك، وقد عشقت روحها ولن يسعدني غيرها، تفهمني و أفهمها دون كلام، ولكنها في نظر أمي ليست قطعة من قمر تناسب وسامتي، مع أنني أراها أجمل النساء،

لذلك قررت ترك البلد، بعد رفضهم الشديد تزويجي إياها، فلن أحتمل أن تكون لغيري، وقد تركت العمل في مزرعتنا بعد أن سمعت تجريحا كافيا من أمي بأنها قد سحرتني وكادت لي بحجاب كي أحبها، كانت تتجنبني و أنا من رميت قلبي بطريقها وجاهدت لأقنعها بحبنا لأخذلها وأخذل نفسي.

ابتسم جدّي وقال له: ما عنوانكم؟ قفزت وقلت لجدّي أنا أعرفه، ضحك الشاب وقال: أجمل محتالة في الدنيا، نظر لي جدّي وقال: تعالي معي سنحتاج حيلتك، وطلب من الشاب البقاء لحين عودتنا...

كان الشاب يتيم الأب وأمه المتحكمة بمقاليد الأمور، طلب جدّي مني طرق الباب وطلب أم عصام، كان اسم الشاب عصاما، خرجت المرأة وبدت حازمة قاسية الملامح، وما إن قال لها جدّي: هل ابنك اسمه عصام؟ حتى تحولت ملامحها لامرأة أخرى، سألت قلقة: هل حدث له شيء؟

ردّ جدّي: نعم، لقد كُسِرَ خاطره! هدأت الأم قليلا وسألت: أهو بخير؟ قال: سيكون برضاك عليه، فقد ذهب لخطبة رشا، أرادت الأم سبّ الفتاة، لكن جدي منعها مكملا وذهبت معه لخطبتها، لكنها رفضته، فصرخت الأم: رفضته! وهل تحلم في الأصل أن تنال مثله تلك عديمة الأصل؟! أكمل جدّي، حاولت إقناعها، لكنها رفضته لأنك غير موافقة، وقالت له: مرضاة أمك واجبة ولن أتزوج من يخالف أمر أمه، فجأة قالت: فعلا إنها

بنت أصول! كدت أنفجر ضحكا من تناقضنا نحن البشر وتقلب أحوالنا!

أكمل جدّي: ولذلك كُسِرَ خاطره وقرر السفر، صرخت الأم على ابنتها، أحضري حذائي سأذهب لخطبتها و أنت معي، فابتسم جدّي وقال: نحضر عصاما أولا.

وبالفعل ذهبنا لإحضار عصام الذي غمز له جدّي بالتزام الصمت، قبلت الأم رأس ابنها، وقبل هو يدها وقالت: رشا بنت أصل وسأخطبها لك و أنا و اثقة من جمال أولادك مستقبلا لأنهم سيشبهونك، يا لكيد النساء وعجائب تفكيرهن! تفكر في شكل الزوجة ليأتي الأبناء بشكل حسن!

بالفعل خطب عصام رشا، وتزوجا بعد شهرين من خطبتهما، بعد أن أعطى جدّي نصائح كثيرة لهما باحتواء الأم، فمن مثلها ترملت صغيرة وربّت أطفالها تحتاج لرفق ولين كي لا تشعر بأن الزوجة أخذت ابنها منها؛ الذي طالما تعبت وضحت لأجل تربيته.

رفقا بالقلوب فأنتم لا تعلمون حالها، فكم من غليظ أظهر غلظته جهلا!

كلنا نمتلك قلوبا رقيقة، فاسعوا لاكتشاف رقتها...

قاموس الضعفاء

المستحيل كلمة موجودة في قاموس الضعفاء، هذا ما أؤمن به، لا تقل مستحيل أن أتغير، سيأتي ما يغيرك ولا تقل مستحيل أن أحقق حلمي فالإرادة تصنع المعجزات. لماذا نمهر في قراءة قصص الإنجاز ونصفق لأصحابها، ونستبعد يوما أن نكون مثلهم، لماذا؟!

عندما يسألني الكثير عن مواهبي المتعددة متعجبا، أرد عليهم ولِمَ لا تتعدد! ما المانع؟ يصير الحلم و اقعا بعقد النية والعزم لذلك، كان لجدّي مستودع يضع فيه كل المواد من طيور محنطة أُهْدِيت له، حتى رأس ظبي كنت لا أطيق النظر لعينيه متعجبة كيف يمكنهم قتل كائن فاتن مثله، علاوة على بعض أدوات الصيد وخلافه...

اعتدت التسلل للمستودع خلسة، فقد كان يخاف جدّي دخولي فيه خوفا عليّ من الأذية، كان بابه كبيرا من الحديد ولا نو افذ له سوى طاقة صغيرة جدا يصعب على من زاد عن الرابعة من عمره المرور من خلالها، كنت في الثانية عشرة من عمري، دخلت وبدأت أقرأ كتابا قديما فيه من الأشعار ما لم أسمعه في حياتي، حتى غفوت دون وعي، مرّ جدّي من أمام

المستودع، فوجد بابه مفتوحا، نادى هل من أحد؟ فلم أجبه فقد كنت في سبات الأشعار اقدة...

أغلق باب المستودع من الخارج وخرج للسهر مع أصدقائه، كان الوقت قبيل المغرب، ظنت جدتي أنني بصحبة جدّي كالعادة، وهو ظن أنني بصحبتها! أفقت على عتمة حالكة، لأن الكهرباء تفصل عن المستودع إلا لوقت الحاجة، يا إلهي!

طرقت الباب لكنّ أحدا لم يسمع، جدتي في البيت مع الجارات والمستودع منفصل عن البيت أصلا، لا أخفيكم شعرت بخوف بداية الأمر، لكن انعكاس ضوء القمر من تلك الطاقة أنبت الأمل والأمان في داخلي، اقتربت من تلك الطاقة وقررت الخروج منها، كانت صغيرة وجسدي يفوق أبعادها منطقيا، لكنني وضعت الصناديق القديمة فوق بعضها وصعدت لفتحها وأخرجت رأسي منها وأخذت نفسا عميقا لأطوّع جسدي على الانسياب عبرها، وكأنني تجردت من هيكلي العظمي وأصبحت معجونة!

لا أدري كيف فعلتها؟ صادف مرور خالي الذي رأى جسدا يخرج من تلك الطاقة، فارتعب بشدة! وأراد الصراخ لأتدارك الموقف و أناديه أنا فايدة! اقترب مني حذرا منبهرا وقال: أعفريتة أنت! وساعدني على النزول من تلك الطاقة، فقصصت عليه ما حدث معي، نظر لي وقال: ر اقصة باليه أنت بلا مفاصل!

علقت تلك الجملة في بالي، لم يكن شائعا رقص الباليه في مجتمعنا ولا مكان لتعليمه أصلا، بعد التناوب على توبيخي

من الجميع، عاقبني جدّي بالبقاء في البيت مدة أسبوع، فماذا فعلت؟ صنعت حذاء باليه جميل جدا بشريط حريري أبيض وربطته على ساقي بعد أن قمت بصنع تنورة من ورق الر افيا والكورنيش، وبدأت بتقليد ر اقصات البالية، صُعِقَت جدتي من اتقاني لصناعة الحذاء والتنورة، فقررت بعدها تعليمي الحياكة والتي أعشقها للآن وأستمتع بارتداء ثوب أنا صممته لنفسي، دخل جدّي ورآني، صمت لوهلة، ظننته سيوبخني ولكنه قال: كيف أساعد أميرتي؟

ضحكت وقلت له: علمني أن أقف على رؤوس أصابعي، لقد أمسكني من ذراعي وبدأ برفعي تدريجيا مرات ومرات حتى استطعت الثبات لنصف دقيقة على رؤوس أصابعي، شعرت أنني كالريشة، نظرت جدتي لنا وقالت: أنار الله عقليكما فقد بدأت علامات الجنون عليكما، كان جدّي سريع البديهية ماهرا في خطف القلوب، فردّ عليها: أظن الجنون فيك!

جمّل الحياء محياها ونسيت توبيخها لنا، بقيت أمارس هو ايتي هذه دون الخضوع لقيد مجتمع يحول بيني وبينها، فهي هو ايتي أنا داخل مملكتي، ما الضير منها؟ وتعلمت بعدها تصميم أي ثوب أراه على غلاف مجلة، فليس من المستحيل أن أحصل على مثله أو شبيه له!

اصنع حلمك و اقعا بما تجده حولك من إمكانات! ولا تقل قيود المجتمع تفرض وتفرض، بل أنت افرض إرادتك مع احترام

القيم والأخلاق وعدم تجاوزها، لا تجعل بطل فلم هندي يمثل فقط أشجع منك أو أوسم، ولا تجعلي فنانة ما أجمل منك و أقدر، ولا تتحدث عن علماء الغرب متعجبا من إبداعهم، فربما تمتلك دماغا فاقهم إبداعا.

فقط حاول ولا تيأس وتكتفي بالتصفيق أو المشاهدة.

ليالي جدي

في ليالي رمضان لم نكن قبل فترة ليست بالبعيدة نسهر لبزوغ الفجر كما هو حال معظمنا الآن، كنا نصلي ونتسامر مع أحبتنا قليلا، ثم ننام لنتمكن من الاستيقاظ للسحور وصلاة الفجر، كان جدّي يمنع التلفاز منعا باتا خلال رمضان، ويعتبره شهر التواصل والمحبة، علاوة على أنه شهر عبادة لا جدال في ذلك..

تصادف بعض الليالي؛ لا يكون فيها غير ثلاثتنا أنا ووجدّي وجدّتي، فأقتنص الفرصة وأجعل جدّي يروي لنا حكاية آسرة من حكاياته، وآه ما أحلاها من حكايات! تنعشني وتجعل مني شهرزادا حالمة؛ لا تتأثر بقبح الواقع وقشوره.

ما زلت أذكر وأنا أميل برأسي على كتف غاليتي بشعري، فتقوم بتظفيره ونحن نستمع لحكاية جدّي، بدأ يسرد قائلا: الأرواح سر إلهي، لا نستطيع يوما تفسير كينونتها. الآن مع هذا العالم الافتراضي ومع تعلقنا بأرواح عشقنا فكرها، وسمعنا همس قلوبها قبل أن نراها، أرواح فرضت سطوتها واحترامها علينا، واستوطنتنا من خلال التخاطر معها وكأنها معنا، أدركت أننا عاجزون أمام سحرها، ببساطة كما قال الرسول ﷺ: (الأرواح جنود مجندة؛ فما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف).

أكمل جدّي قائلا: حدث أن سمع شاب في ليلة أُنس يجتمع فيها القاصي والداني عن فتاة تناقل أحد التجار وصفها قائلا: كانت امرأة ليست كباقي النساء، فصيحة اللسان، قوية البنان، تنافس الفرسان، وفاتنة كل الأزمان، لم يكن لها أبناء عمومة وكانت وحيدة أبيها، فخاف عليها عثرات الزمان، وأراد تزويجها من شاب هي تختاره ولو كان في آخر البلدان، فتو افد عليها الخاطبون من كل صوب ومكان، لكنها أبت إلا من تألف له الروح ويطيب به الخاطر وتفيض لذكره الخلجان، كانت واسعة العيون، كل من رآها أصبح بها هائما مفتونا، غار القمر من شعاع خدها والغزال من حُسن قدّها، بعد هذا الكلام شعر الشاب بقشعريرة غريبة اجتاحت جسده، وكأنه لذكرها ذاب من حُسن صيت وجمال تلك الرباب. فقرر همام السفر لديارها، بعد أن سمع نداء قلبه الخفي، تلك هي ولا أحد غيرها. تلك هي شقيقة الروح ولم يعلم أن رباب ووالدها قد قررا زيارة بيت الله الحرام معتمرين، وقد خرجا مع قافلة سيّارة تستريح بين حين وحين، وكأن روحيهما قد سارعتا للقاء، جلّ من آلف الأرواح وقادها للتعلق في بعضها البعض! يقترب والقلب منه يخفق. ولم يعلم بأن ربابه في قافلة خلف التلة تستريح، وقد خرجت لصيد قبرة تلاحقها، أهي روحها تقودها إليه! أم أنّ القبرة إشارة لذلك التآلف؟ جلس همام ليأخذ قيلولة تحت الشجرة التي حطت عليها القبرة، وإذ بسهم رباب من خلف الشجيرات يصيبها، فتقع عليه ليصيب السهم كتفه فيجرحه، صرخ الآه لتظهر رباب من خلف الشجيرات،

وتقع عينها في عينه ولا أظنه شعر بوجع كتفه ما إن أصابته سهام عينيها البتارة فأردت قلبه، هي مذهولة شاخصة من أين أتى هذا الرجل؟! نادها أبوها: أي رباب أين أنت؟! ردت: هاهنا احضر إليّ. اقتربت من الشاب ببطء حذرة ووالدها يتبع خطاها، وما إن رأت دمه حتى اجتاح الوجع قلبها عليه وكأنه كتفها، اعتذرت منه وعقله مصروع هواها محادثا نفسه هل ما سمعته صحيح، وهل اسمها رباب؟! جاء والدها و أفهمته ما حدث، اعتذر عنها وسار به لقافلتهما ليحسن علاجه وضيافته، وحول النار في بيداء الله يجلسان والعيون تتعانق والقلوب تعلو نبضاتها والأرواح منهما تتناجى.

أدرك قبل أي كلام أنها حبيبة العمر، وأدركت هي ذلك بالمثل. وعلم همام بعد أيام من مكوثه معهم سائرا نحو بيت الله أنها هي من سمع عنها، وتقنص الفرصة لإخبارها، وما إن نطق أنني جئت ساعيا بحثا عنك، حتى ابتسمت وقالت: أخبرتني عيناك بذلك. تلاقيا وتعانقت روحاهما مرات ومرات، وأدرك والدها بأن رباب قد وجدت ضالتها في هذا الغريب القريب، لقد اعتمرا سوية ليُعقَد قرانه عليها في ديار الله المقدسة، حب طاهر روحاني، سيقول قائل: إنه فُتِن بشكلها، وأردّ عليه: ما الضير؟! إن تملكته روحها رغم البعد والمسافات! ما الضير إن فتنه جسدها كما فتنته روحها! الضير أن أخالف عقيدة الحب و أبحث عن المظهر قبل الجوهر.

أغمضوا عيونكم لوهلة وتخيلوا معي أن تعشقوا روحا بعيدة عنكم حد الجنون دون رؤيتها، لتدركوا بعد رؤيتها أن حواسكم أيضا عاشقة لها.

الحب هو أن أراك حبيبي بعيني قلبي، فمن إن تراك عيناي حقيقة حتى تكون الأوسم في نظري.

يظن الكثير منا بأن الفتاة هي الحالمة فقط بفارس أحلام ير اقصها على أنغام كلمات ليست كالكلمات، ولا يعلمون بأن الرجل حالم أكثر و أكثر.

أعان الله تلك الأرواح المعلقة المشتاقة، وجمعها بعجائب قدرته.

خفافيش

عندما أشعر بالحنين أركض لخزانتي، وأخرج ثوب جدي الغالي –رحمه الله– وساعته، و أتنفسهما حنينا، وأعود لأرتمي على فراشي، ودمع من الأشواق يخالجني، وما هي إلا لحظات حتى أشعر بطاقة عجيبة، سرّها تلك الذكريات معه...

وضعت يدي على عنقي، لامست عِقدا من الأحجار الكريمة فاق عمره المئة عام و أكثر؛ أورثتني إياه جدتي –رحمها الله– كان جدّي قد أهداه لها أيام شبابهما، لم يكن عقدا عاديا، كان فيه طاقة غريبة، فأنا هشة أعاني من التهاب لوزي كثيرا، وبمجرد أن أرتديه أشعر بعد إرادة الله وعظمته باختفاء الألم وعودة لوزي لوضعهما الطبيعي، كان جدّي يسميه (عِقد أم الحلوق) وقصد بأمّ الحلوق (اللوزتين).

لله درّكما من عظيمين! أحبكما يا عيوني وسأبقى.

وأعلم بأن سلامي يصل لكما رحمات، رحمكما ربي.

قمت من فراشي أردت النظر للعِقد، جنون الأنثى غمرني، وتذكرت جدتي وهي تلطخ جسدي بالدم، قد يَعْجَبُ البعض! لكنها الحقيقة، لقد أحضر جدّي أربعة خفافيش، وكانت تلك

المرة الأولى التي أرى فيها الخفاش(الوطواط) كان كائنا غريبا، سبحان الله وصغيرا جدا بحجم الفأر.

ذبح جدّي الخفافيش في وعاء عامدا لجمع دمها، وأظنكم تدركون بأن الحصول على كائنات الليل ليس أمرا يسيرا، وكنت أراقب متعجبة، وطبعا لا أسأل فقد عودني أن لا أسأل إلا بعد أن ينتهي من الأمر.

فجأة نادى جدتي وقال لها: هيا افعلي ما يتوجب (هههه).

لن أستطيع وصف شعوري لكم، ولكن ثقتي بهما كانت أكبر من أيّ سؤال، ورغم كل ذلك، بمجرد ذهاب جدّي سألت جدتي لماذا هذا الدم؟ ضحكت وقالت: لكِ، فتعجبت وقلت: لي، وصرخت لن أشربه!

انفجرت جدتي ضحكا تلك اللحظة، كانت امرأة فاتنة دافئة العينين، ما زلت أسمع ضحكتها، وقالت: ليس للشرب، الآن ستعرفين.

ثم قامت بنزع ملابسي ودهن جسدي به كاملا، كنت في السابعة من عمري، وقالت انتظري حتى يجف ثم سأغسلك، وشرحت لي بأن هذه العادة اسمها (وَطْوَطّةٌ)؛ حيث نقوم بدهن الفتيات بدماء الوطواط، ويُفضل في عمر أصغر من عمرك، والهدف من ذلك أن يبقى جسد الفتاة أملسا ناعما لا ينبت عليه شعر زائد، فقد بارك الله في المرأة النعوم.

قد يتعجب بعضكم من تلك العادة ويقول بأنها محض خرافة، لا أعلم جذورها حقيقة، ولا آبه لجذورها العلمية، فمن خبرتي مع جدّي أدركت وجود أمور يعجز العلم عن تفسيرها، أو الأصح عجزنا نحن عن إيجاد الأساس العلمي لها، ولكن جلّ ما أعلمه أنهم يفعلون ذلك حرصا على جمال الفتيات وتعليمهن ما يتوجب.

ولا تسألوني (هههه)عن نجاحها، فلن أتطرق لذلك وسأكتفي بالقول فقط: كل تراث الجدود حقّ قاطع طالما لا أذية فيه.

وما زال في جعبتي من العادات ما هو جميل عجيب، ما أورده يمثلني، و أقصد منه سرد زمن جميل عشته بصحبة جدّي، فلا تتسببوا بانقراض الخفافيش رجاء بعد أقصوصتي هذه.

بنفسجية

من أروع ما يمكن للعبد فعله هو التحدث بنعمة الله عليه!

لقد عشت طفولة جميلة بكل ما تحمله المقاييس من معنى، ركضت في البرية أطارد الفراشات، وتتبعت النمل في قريته، وزرعت النباتات وللآن ما زالت العائلة تضحك عليّ لأنني أعشق تناول الأوراق الخضراء بشتى أنواعها، وما إن أرى المروج أمامي أنطلق راكضة فيها، وألقي بنفسي على الأرض دون تردد، لطالما كانت وريقة فجل، أو خردل مع قطعة من الخبز بالنسبة لي كافيارا.

تسلقت الأشجار وتتبعت أعشاش العصافير، بل صنعت من المطاط قوسا لأصيد به بعض الطيور البرية شهية المذاق، وتجولت مع جدي الغالي في البرية حتى تعلمت منه معظم أسرار الطبيعة التي يعرفها، وعرفت الصلصال، وتعلمت تشكيله.

أميز ينابيع الماء الصالحة للشرب من عدمها، وأخاطب الكائنات، حتى أن أول مرة تبرجت فيها مزينة خدودي بالأحمر وكأنني دمية يابانية الصنع كانت في البرية، قطفت من الزهور الحمراء وعصرت لونها وزينت به خدودي لأكتشف أن لونها الأحمر القاني يتحول للبنفسجي بعد تلطيخ خدودي به.

لن أنسى ضحكة جدي عندما رأى خدودي، شعرت بصداها في كل البلاد حتى أنه قال لي: يا زهرة العليق ترفقي بالحيوانات ولا ترعبيها.

لم أفهم قصده حتى أخرج مرآة ساعته، وجعلني أنظر لوجهي، ولون وجنتيّ البنفسجي. كنت أحب ساعة جيبه كثيرا، فقد أهداها له خالي، كانت إنجليزية كلاسيكية النقوش.

حاولت الإسراع في مسح وجنتيّ ببعض من الماء القريب، لم أنتبه للنحلات، ويحي أزعجتهن، لتهديني إحداهن لسعة على أنفي، يا سلام! لقد اكتمل جمالي وقتها.

خدود بنفسجية،و أنف كأنه حبة طماطم. صدق جدي لقد أرعبت تلك الكائنات. بكيت بشدة، وحضنني بلطف، ووضع بعضا من الطين على اللسعة لحين عودتنا.

عدنا و أنا أغطي أنفي بيدي، سيضحكون عليّ، أعرف ذلك. ونحن في الطريق صادف جدي رجلا أصلعا تماما، تعجبت من صلعه، كان رأسه لامعا على نحو غريب وكأن الشعر لم ينبت في رأسه يوما، فاختبأت خلف جدي كي لا يضحك على أنفي.

لكنه لمحني وضحك، بعد أن سلم على جدي.

أمرني جدي بالخروج من خلفه وإلقاء التحية. قال: تعلمي مواجهة الناس بكل حالاتك، فنحن لسنا ملائكة. (صدقت يا حبيبي(رحمك ربي))... ألقيت التحية على الرجل الذي كاد ينفجر

ضحكا على لون خدودي، أما لسعة النحل لم يكترث لها، و اقترب نحوي وقال: يا بنفسجية. (وهذا سرّ عشقي للبنفسج، ربما!)

تابع يا بنفسجية لا تهتمي للسعة النحل ستزول، انظري لرأسي، لقد حصدته النحلات ذات مرة، تعجبت ونظرت لجدي ليشرح لي.

ودعنا الرجل ومضى في طريقه، وصممت على معرفة قصده، فأخبرني جدي بأن اسمه فالح وهو صائد عسل، ضحكت وقلت له: وهل العسل صيدٌ يا جدي؟ فقال لي لا تستعجلي. وأكمل: إن أجود نوع في العسل يا(فايدة) كان يسقط الهمزة إذا ناداني... إن أجود أنواع العسل هو البري الذي يكون في سفوح الجبال، لذلك يأتي صائد العسل بنوع من الخيوط الحريرية فائقة الرقة والطول، فيتصيد نحلة ما، ويمسكها بعد رشها بمادة خاصة كي تضعف، فلا تلسعه ويسهل ربط الخيط حول خاصرتها.

قلت له: خاصرتها؟! فقال: أي بطنها، وهذا عمل دقيق جدا، فالخيط رفيع وحجم النحلة صغير، ثم يطلق سراحها، ويتتبع الصائد النحلة ومعه ربطة طويلة من الخيط يشدها ويرخيها وفقا لحركة النحلة.

الأمر ليس بيسير، فلا بدّ للصائد من رشاقة وتحمل على قطع المسافات التي تقطعها النحلة، لذلك الذكي منهم من يدرك قربها فيربطها بالقرب من خليتها التي لا يعلم مكانها تماما، فالهدف من تتبع النحلة هو الوصول للخلية والحصول على العسل الصافي

النادر، إذ يُباع بثمن باهض نتيجة هذا العناء، بدلا من عسل السكر المغشوش.

ذُهِلتُ، وسألته وما قصة رأسه؟ فضحك جدي وقال: لقد تعثر فالح بخلية نحل هجمت على رأسه وتعرض لأكثر من 150 لسعة في رأسه، حتى أغمي عليه، فوجده أحد المارّة وكان رأسه مخيفا لهول التورمات فيه، فظن الجميع وقتها بأن مات، أو بأنه لن ينجو، لكن بعد أسبوعين تعافى تماما، لكن العجيب أن كلّ شعره قد تساقط عن رأسه، ولم ينبت بعدها، وحار الجميع في أمره، حتى لقبوه (بأبي دبيس)؛ لأن رأسه أشبه برأس الدبوس. ورغم ذلك لم يتب عن صيد العسل فما زال الأمهر على الإطلاق.

لمست أنفي وحمدت الله بأن النحلة لم تلسعني على حاجبي. فيسقط، لألقب بعدها (أم حجيب) من يدري؟! فنحن العرب ماهرون جدا بالألقاب.

عدنا مع زوال الشمس، لوحت لجدتي من بعيد؛ التي وبختني كالعادة،ثم تفحصت ملامح وجهي وكأنها تخاف علي من نفسي.

أحبكما جدا (رحمكما ربي).

صغيرتكما فائدة.

البنات

في أحد الأيام طرقت بابنا امرأة عجوز باكية، تسأل عن جدّي، هدأت جدتي من رَوْعِها وأخبرتها أنّ جدّي يعالج أحدهم وسيحضر لك في الحال، لكنها بقيت تبكي بحرقة إلى أن حضر جدّي، فهرعت نحوه ممسكة رداءه قائلة: أنا أقصد الله ثم أقصدك، ردّ عليها جدّي بعرفنا: قد وصلت وقدرني ربي على تلبية حاجتك. فقالت: لقد طُلِقَت ابنتي من زوجها ظلما، ولا طاقة لي على حمل مسؤوليتها وبناتها، فكما تراني؛ عجوز قد بلغت من العمر عتيا، وبالكاد أملك قوت يومي، وليتها عادت وحيدة لكنت زوجتها من غيره، لكنها عادت بأربع بنات يثقلن الكاهل...

ابتسم جدّي وقال: بل ببنات يدخلن الجنة؛ لمن وُفِقَ في تربيتهن وأحسن إليهن. لكن غبار السنين المتراكم على فكر تلك العجوز هيهات أن يتغير بين ليلة وأخرى. هي ترى البنات عبئا وهذا ما يراه الكثير منا. بل يسودّ وجه معظمنا إن بُشّرَ بولادة البنت. سأل جدّي: ما سبب طلاقها؟ سكتت العجوز، فأعاد جدّي السؤال، ثم قالت متلعثمة: لأنها تسببت في موت ابنهما الوحيد والذي رُزقت به بعد البنات، ثم جلست تلطم رأسها وتبكي وتصرخ: أنا السبب، أنا السبب، فغضب جدّي ونهاها عن

اللطم، قال: الموت واحد وإن تعددت أسبابه وأجله قد انتهى، اهدأي وأخبريني كيف مات؟!

قالت: لقد وُلِد بهي الوجه مكتنز البدن وعمّت الفرحة بقدومه حتى أن والده ذبح الذبائح تعبيرا عن فرحته بقدوم مصطفى إذ سمّاه على اسم جدّه، لكن مصطفى بعد أربعين يوما على ولادته مَرِضَ وهَزُلَ ولم تُعْرَف علته. أخذه والده للأطباء ودخل المشفى ولم يتحسن، فجزم الجميع أن عين حاسد قد أصابته، رقّيناه بماء طهور و آيات من القرآن على يد أشهر الشيوخ ولم يجد ذلك شيئا. قاطعها جدّي قائلا وهل رقية الصغير تحتاج شيخا؟! فلا أشفع به من قلب أمه أو أبيه والأجدر بهما حفظ الرقية هما بدلا من اللجوء لآخرين؛ فسرّ الرقية اليقين. ومعظم شيوخنا ضاع منهم اليقين عندما اعتبروا الرقية مهنة تدرّ عليهم دخلا، فحفظوا الآيات صما وكأنها واجب عليهم دون إحساس اليقين فيها، ثم أمرها أن تكمل.

تابعت قائلة: خفت على الطفل أن يموت وكان بالنسبة لي ولابنتي سببا في تثبيت قدمها في بيت زوجها. فقاطعتهم أنا مستفسرة: تثبيت قدم؟! وكيف ذلك؟! فردّت العجوز قائلة: المرأة التي لم تنجب ذكرا سيختفي ذكرها من بيت زوجها ويستبدلها بأخرى.

يا الهي! فتحت فمي مبهورة من جهلنا، ونظر لي جدّي وقال: يغيب عن بال معظمنا أنه العلي القدير هو من يهب الذكور

والإناث لمن شاء... ثم ناداني وأجلسني بجانبه وذراعه وشاح أمان يطوقني، وقال للعجوز: لي أحفاد ذكور كثيرون، ولم أشعر بحفيد لامس قلبي كهذه البنت التي أمامك...

هل تعلمون تلك العبارة هي سرّ كتابتي لمذكراتي مع جدّي. شعرت بالمسؤولية بأن أظهر للعالم عظمة ذلك الرجل الذي أنبتني منبتا حسنا، وجعلني واثقة الخطى وملكة على عرش قلبه. فكيف لا أبرّبه!

لم تقتنع العجوز وردت: أنت غير يا أبا طاهر. فضحك وقال: أكملي.

وتابعت قائلة: لقد سمعت عن شيخ ماهر له قدرات خارقة (وأظنها تقصد مشعوذا محتالا)، وأخذنا مصطفى إليه ووالده في الجيش، سأل جدّي: هل استأذنت زوجها في الذهاب؟ فتلعثمت العجوز وردت: لا، لا... قال جدّي: أخطأت.

المرأة ليست أسيرة الزوج ولكنّ من حقه أن يعرف كل خطوة تخطوها من باب الحماية والاطمئنان، ولا علاقة للثقة في هذا الأمر بشيء يُذكَر. فقط ببساطة يجب أن يعرف من باب العلم بالشيء كي لا يفاجأ بطارئ قد يحدث معها. ولطمت العجوز مرة أخرى وقالت: أنا السبب، فقال: أكملي...

قالت: فأخذ المشعوذ منا إسورة ذهبا وأعطانا مجموعة من الأعشاب لنسقيها مصطفى، ثم أمرنا بتركه ليلة في مقبرة لوحده، ونأتيه فجرا... رفع جدّي صوته قائلا: الله أكبر، وحسبي

الله على أمثاله! وما الحكمة من ترك رضيع لوحده في ليلة ظلماء بين القبور؟

قالت العجوز: لتُنزع منه الروح الشريرة التي سلبته عافيته وتعود للقبور، فضرب جدّي الكف بالكف وقال: وهل صدقت ذلك؟ ردت: كنا غارقتين ونريد ولو قشة نتعلق بها! ردّ جدّي: و أين العظيم من كل هذا؟! مدبر الكون والأرحم بعباده.

طأطأت رأسها خجلة، وبكت وهي تقول: شربناه الأعشاب وتركناه لنجده جثة هامدة في الفجر مُزْرَقّ اللون. قال جدّي هو عند الله أرحم عليه من جهلكما به، الطفل مات بردا، وتابعت العجوز عندما عَلِم زوج ابنتي، جُنّ جنونه وطلقها طاردا إيّاها وبناته.

حوقل جدّي وطلب مني حذاء الخروج، وقال لجدتي: أكرمي ضيفتنا لحين عودتي، بعد أن أخذ منها عنوان الزوج. وذهبت معه ومن النادر أن أرافقه لبيوت الناس، ولكنه قال لي أثناء سيرنا: أحضرتك عامدا.

وصلنا لبيت الرجل وطرق جدّي الباب، فتح لنا الرجل، عرّفه جدّي بنفسه وبي وقدم واجب العزاء للرجل في صغيره، ثم قال له: ما هو شعورك إن رُزِقْت بأربعة أولاد مرة واحدة، تنهد الرجل وقال: سأطير فرحا.

ردّ جدّي وقال: ولكنك سترزقهم قريبا إن أحسنت تنشئة بناتك وزوجتهن لرجال صالحين، فذُهِلَ الرجل وتابع جَدّي: أعلم

جهل زوجتك، وأن ما فعلته ذنب عظيم، ولكن رغبتها في إرضائك أعمتها عن الصواب حتى أنستها الخوف على فلذة كبدها من وحشة القبور... لقد تعلمت درسا، ولكن ما ذنب صغيراتك اللواتي لن تجد في كبرتك غيرهن. انظر هذه حفيدتي، وقد اخترت تنشئتها ليقيني بحنوها عليّ، ولو اخترت حفيدا لطار مني ما إن يدخل في قفص محبوبته. تلك سنّة الحياة والبنات رزق من الله وهنّ المؤنسات.

نسيت وجودنا عند الرجل واحتضنت جدّي، وقبلت جبينه وما زلت أشعر بملح جبينه للآن... رقّ قلب الرجل ودمعت عيناه شوقا لبناته، واستغفر ربه وعاهد جدّي بإرجاع زوجته، وتعليمها والإحسان لبناته. وبعد فترة سمعنا أنه رُزِق بطفل وسمّاه عَوَض.

ألا رفقا بالقلوب الجاهلة الكسيرة! ساندوها ولا تكونوا أنتم والظروف عليها.

امنحوا الفرصة لمن زلّ واخطأ لعلّ وعسى أن يكون صلاحه على أيديكم...

إرادة

اعتادوا على أن ما أبوح لكم به و اقع، وأن هنالك من الأمور ما يعجز العلم عن تفسيرها، هي أمور روحانية وكرامات يهديها الله لذوي البصائر منا.

سأهمس لكم بما ستظنونه عجيبا لوهلة، لكنني عشته وسأنقله لكم، فخذوا العبرة منه والقوا في البحر ما لم يعجبكم منه.

تطويع النفس هو من أكثر الأمور إجهادا وفي ذات الوقت سر من أسرار السعادة وعلم الطاقة.

لقد كان جدّي مريضا بمرض(السكري)، وعند تشخيصه بذلك أمره الأطباء بالحمية والابتعاد عن الحلو بأنواعه، فضحك لكلامهم، وحاول أخوالي إقناعه بأخذ الدواء، بل كان أحدث دواء للسكريّ يأتي له من ألمانيا في ذاك الوقت.

لم يفهموه، فقط أنا كنت أعرفه. كان يشيح بعلب الأدوية جانبا، وذات مرة تعب فجأة، واستدعينا الطبيب الذي أكدّ وجوب دخوله المشفى، وأن السكر مرتفع لديه، فرفض رفضا قاطعا، ليس عنادا لكنه أدرك سرّ التحكم بأعصاب الدماغ، لا

أقول لكم افعلوا مثله، فذاك أمر لا يستطيع الإقدام عليه إلا رجل ملك إرادته وحكمته.

طلب من الجميع بأن يخرجوا، ناداني وكنت لا أعصيه أبدا. طلب مني أن أحضر علبة حلوى له، أومأت له: لا. لا.

نهرني فوقفت كالجنديّ أمام ضابطه، وأسرعت لإحضار ما أمرني به. فأكل العلبة كاملة، ثم ابتسم واسترخى، لقد أمر جسده برفض كلامهم، لقد طوّع عقله بتنحية المرض جانبا والاستجابة لرغبته، أمرا ليس هينا أبدا، أبدا، كمن تراه يمشي على الجمر مطوعا جسده بإسقاط الألم.

بعد نصف ساعة نادى خالي وقال له: لقد انخفض السكر في دمي، وقسه لتتأكد.

بالفعل قاس خالي معدل السكر في دمه فوجده في معدله الطبيعي جدا، فغمز لي جدّي وضحكنا معا، وخالي يسأل ماذا حدث؟ فأعطيته علبة الحلوى و أنا أضحك.

ففهمنا ثم سحبني من يدي، وقال: لا تردي عليه في المرة القادمة، لكنني أذكر وقتها أنني كبرت تلك اللحظة فجأة، ونظرت في عينيّ خالي وقلت له: لن أردّ على غيره، و أنا أثق به وبحكمته، فليتك يا ابنه تفعل.

لن أنسى نظرة خالي لي تلك اللحظة، وهو يقول: أنت ابنته، ولست أنا، وقبلني بحرارة.

طوّعوا جهازكم المناعي على مقاومة كل ضعف، وامنحوه جرعات من القوة، فليست المضادات الحيوية بكفيلة وحدها على معالجة أمراضنا، مضادات الروح والعقل أقوى مفعولا: إنها الارادة.

قد يمشي المقعد تاركا كرسيه المتحرك إن وجد يدا تقول له: تعال.

قد يقْهَر السرطان بعزيمة المريض فيخجل ويتقهقر.

قد أزور وطني العربي يوما دون جواز سفر إن نحن أردنا.

رحمك الله يا حبيبي.

غزال

ما زلت إن اعتراني ضيق أو حزن أخرج للبرية وأستلقي تحت الأشجار؛ لأتأمل تعانُق أغصانها مع بعضها البعض، و أناظر مداعبةَ أشعة الشمس لأوراقها، وإن مشيت حافية القدمين ملامسةً ماء جارٍ فكأنما ملكت الدنيا بما فيها.

كان جدّي يعرف عشقي للبرية لذلك كان يأخذني معه في رحلات صيده للطيور البرية. في بداية الأمر كان يمانع ذلك بشدة خوفا عليّ، و أبقى أنتظر عودته في البيت حزينة، لكنه اقتنع بأن أرافقه في أول رحلة صيد لنا سوية بعد أن رآني أتسلق شجرة سرو عالية دون خوف لأحصل على غصن مائل منها، وأصنع منه قوسا.

لقد بُهِر بقوسي وسهامي التي صنعتها، بل طلب مني تجربته، وقام بشدّه لي. عندها قال لي: سأجربك في رحلة الصيد. من شدة الفرحة قفزت نحو أحضانه ومعي أحد السهام الذي تسبب في جرحه دون قصد مني، ودون تفكير وبلا وعي أذكر أنني قبلت جرحه وسارعت لقطع جزء من قميصي لألف جرحه فيه و أنا أبكي.

هل تعلمون ماذا فعل؟ بقي محتفظا بذاك الجزء من قميصي الملطخ بدمه حتى فارقت روحه جسده.. قد تظنون

أنني أبالغ، لكن ما جمعني بجدّي لم يكن صلة الرحم فقط، بل كنت ابنة روحه، ولو كان العمر يُوهَبُ لوهبته عمري ليبقى، لكنّ الموت حقّ –رحمك الله يا روحي– تنهمر دموعي الآن شوقا له...

تبا للأشواق كم هي لاسعة! في رحلة صيدنا الأولى معا أعلنت جدتي –رحمها الله– حالة الطوارئ خوفا عليّ، وبقيت الليل بطوله تجهز لنا حقيبة رحلتنا. زارني الأرق تلك الليلة لفرط السعادة، ولم أنم إلا بعد أن هدد جدّي بأنه سيغير رأيه، ولن يأخذني معه عندها نمت.

نعم، نمت أنتظر الفجر لننطلق، وكأن المنبه البيولوجي صفعني كفا وهو يقول: أفيقي هيا...

عندما أفقت وجدت جدّي يتناول التمر الذي لم يفطر على غيره يوما، وضحك وهو يقول: لو أيقظتك للمدرسة لاحتجت لمدفع! كنت أكره الذهاب للمدرسة لسببين: الأول أشعر أن المواد سهلة ولا تحتاج مدرسة، والثاني أكره البعد عن جدّي، وما زلت أكره المدرسة التي خطفتني من لحظة وداع جدتي يوما، فقد عدت منها يوما لأجد جدتي جثة، تبا!

سيأتي وقت لأروي لكم ذاك اليوم الذي انتزعت فيه روحي وروح جدّي لموتها. تبا... أشعر بمشاعر تسعدني وتقتلني في الوقت ذاته... جدتي هل تسمعينني؟ أحبك، اشتقت لحنانك جدا، اشتقت لدفء يديك ونعومتهما.

أعود لأول رحلة صيد لنا معا...

ودعت جدتي وأخبرتها بأنني سأحضر لها طيورا كثيرة، فضحكت وقالت: فقط عودي سالمة أنت والغالي.

واحتضنت جدّي... كانت رحلتنا سيرا على الأقدام نحو منحدرات بعيدة، وسنضطر للنوم في البريّة ليلة... قبل أن نخرج ناداني جدّي، وفكّ جدائلي وطلب من جدتي صنع جديلة واحدة لي ولفها حول رأسي، ثم أحاط رأسي بالحطّة، وهي منديل شعبي يوضع فوق الرأس أو على الأكتاف في بلاد الشام. وقال: ذلك سيحمي رأسك من ضربة الشمس، وجعلني أرتدي بزة عسكرية كانت جدتي قد عدلت قياسها وفقا لحجمي، ثم انطلقنا...

كنت أمشي بسرعة من شدة الإثارة، لكنه كان ينهاني قائلا: هكذا ستنهكين، امشِ ببطء واستمتعي بهواء الفجر، فإنه يخلو من أنفاس المنافقين، وتلك كانت المرة الأولى التي أصلي فيها الفجر في المسجد، إذ كان في أسفل المنحدر مسجد بسيط ما زلت أذكر قبته الخضراء الصغيرة، وذاك الشيخ الطيب فيه...

بعد الصلاة بدأنا النزول نحو المنحدر، كان جدّي يمسك يدّي بقوة خوفا من أن تنزلق قدمي. بعد المشي مدة أربع ساعات بل أكثر وصلنا أسفل المنحدر الذي كان جنة من جنان الدنيا: شلال ساحر وسيول من الماء، خضرة وظل..

في هذه الرحلة رأيت الثعلب لأول مرة في حياتي على نحو مباشر، كنت أظنه كبيرا الحجم، لكنه صغير وذيله فاتن: حقيقة وقعت في غرام عيونه اللوزية بالرغم من وصمة المكر التي عُرِفَ

بها، ورأيت القنفذ الذي كان سببا في رحلة صيدنا، حيث خرج جدي لإحضار القنافذ لأنه كان يستخدمها في مداواة الذين يعانون من السلس البولي...جميلة هي وكائنات لطيفة، كان يرشها بالماء فتظهر رأسها.

لكن الملفت للنظر والذي أرعبني للآن، وجعلني حاقدة على كل ساحر وساحرة، تبا للنفاثات في العقد تبا لهن! هو منظر قنفذ يتأوه، هزيل جدا، اقترب منه جدي ليرى العَجَب، لقد كان فم القنفذ مخيّطا والدم يتسايل منه، لم أفهم من هو الشيطان الذي يمكن أن يفعل بكائن مثل هذا!

ارتعبت وتراجعت للخلف. اقترب جدّي من القنفذ، ورشّ عليه الماء، ثم قام بقطع رأسه، فقد أوشك على الموت من شدة الجوع، ثم أحضر رأسه وقصّ الخيط ليخرج منه ورقة مغلفة بلاصق شفاف... فتح الورقة ليجد أنها طلاسم سحرية بحق أحد ما.

يا إلهي! أحيانا أشعر أن الشيطان مخلوق بريء أمام النفس البشرية الأمارة بالسوء.

اقتربت من جدّي وهو يكرر: لا حول ولا قوة الا بالله، وأحضر ماء وقرأ عليه المعوذات، وآية الكرسي بعد أن أضاف إليه الملح، ثم وضع الورقة في داخل الكأس ليذوب حبرها، وأشهد الله بأنه قد فكّ سحر أحد ما...

رحلة كانت هي نصف عمري...

بتنا تلك الليلة تحت ضوء القمر بعد أن أشعل جدّي النار لإبعاد الحيوانات المفترسة، وكان قد جهز حطبا كثيرا لإطعام النار التي لم تشبع طوال ليلتنا تلك، كنت في أحضانه غافية على صدره، وربّ محمد إنه شعور ما بعده شعور أن نكون بأحضان الأحبة.

احضنوا أحبتكم، اكسروا رتابة الحياة، اجعلوهم فراشكم ووسائدكم، فكم سنعيش؟!

أجمل ليلة في حياتي كانت تلك الليلة، لم أشعر بخوف أبدا. في فجر اليوم التالي جهز لنا جدي إفطارا شهيا على النار (قلاية بندورة) وشاي نار فاخر، وخبز رغيف النار بعد أن عجنته له، شعور لا يوصف.. كم نحن حمقى تسرقنا مَدِنِيّتنا من حريتنا!

كان جدّي ماهرا في صيد الطيور، جمع ما يقارب العشرة منها، وقبل أن نغادر همس لي لأنظر أعلى المنحدر لأرى غزالا... يا إلهي! كانت فاتنة جدا، أراد جدّي قنصها، لكنني صرخت: اهربي، اهربي...

غضب جدّي لوهلة مني لأنها قفزت بعيدا، وقال: هل تعلمين ندرة مصادفة كهذه! لقد أضعتها مني، فاقتربت منه وقلت له: هل تحبني؟! قال: جدا وجدا وجدا...

وهذا سرّ تكراري لهذه الكلمة ثلاث مرات في تعليقاتي، وقبل أن أطلب منه طلبي عرفه وأجابني: أعدك، لن أصيد غزالا ما حييت لأجلك يا غزالتي.

لقد قال لي: يا غزالتي! فكيف لا أحبُّ غَزَلَ غزالٍ من أعظم مُتَغَزِّل؟!

أحبك يا أسد قلبي...

حنان

لقد شعرت بوجع في سنّي، فأغمضت عينيّ، وسرحت نحو البعيد، وعدت لماض عذب قد مضى بصحبة جدّي، لأنسى الوجع كما علمني. ما أورده هنا واقع عشته، وتعلمت منه وصُقِلَت شخصيتي عليه، فلقد علمني جدّي بأن المرأة أقوى بكثير من الرجل، فهي مربية الأجيال ومن رحمها تتكاثر الأمم، وكم أخبرني وأنا في حجره وهو يرفع شعري عن عينيّ؛ أنني مهما بلغت من قوة وعلم، فسرُّ قوتي هو رقتي وأنوثتي، ولطالما نهرني عن رفع صوتي، حتى طريقة جلوسي وجهي، وأخبرني بأن الأنثى تجلس منتصبة الظهر والعنق، مشدودة المعدة، مضمومة القدمين، بكلّ رقة وتهذيب. للآن ما زلت أسمع صوته يوبخني إن قوست ظهري، أو جلست جلسة غير متزنة أمام أحد، وأذكر بكائي تلك الليلة من وجع سني، إذ احتضنني وربط سنّي بخيط وقال لي: اششش... كي لا أسأل... كم كان حازما حنونا! ثم ربط طرف الخيط بالباب، ولم أفهم مقصده.

وكلّ ما أذكره صوت الباب وجدّي يغلقه بقوة. نعم، لقد خلع سني، سقطت فاقدة الوعي تلك اللحظة أشبه بالمغشي عليها، داعب وجنتيّ وخاطبني هل شعرت بشيء؟ فقلت: لا، فقال:

افتحي يدك... فتحتها ليضع سنّي في يدي، وتابع قوله: الآن نامي برفق، لندفن سنّك غدا في الحديقة وندعو الله بأن يرزقك سنا جميلا بدلا منه، وتذكري يا فايدة، الوجع زائل لا محال ولو بعد حين كخلع السنّ، فلا تعطي للأوجاع أهمية، وواجهيها ببترها، أو أغمضي عينيك وتخيلي القادم من فرح بعد الوجع.

ما زلت أطبق كلامه للآن وهذا سرّ مخيلتي الخصبة بماء حكمته...

نحن من نوجه أنفسنا لما نريد... لماذا نبقى نكررتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن؟ أما حان لنا تحريك السفن بطريقة أخرى.

لقد حملني جدي مرة على كتفيه، فركض باقي الأحفاد نحوه ليحملهم كما حملني، وأردت النزول لتتاح لهم الفرصة بدلا عني، لكنه رفض وحمل خمسة غيري من الأحفاد، همست له نحن ثقيلون عليك يا جدّي، فضغط على ذراعي بشدة يغلفها رفق، وأجابني:

أنتم ثقيلون بالفعل إن انا اقتنعت بذلك، ولكنني يا حنونة لم أقتنع بذلك بعد.

أحبك وسأبقى أنسج عمري معك وشاحا يدفئ قبرك يا حبيبي.

رحمك ربي ورزقك جنانه.

عجائب

قد يعجب البعض مما سأورده...

لقد نشأت في بيت جدي وجدتي لتعلقهما بي، وكنت أذهب ضيفة لبيت والديّ، تربيت في كنف رجل حازم مقدام تهابه الرجال هو جدي، وفي أحضان امرأة كانت للحنان عنوانا، علمتني الحياكة منذ نعومة أظفاري، وصنع الدمى، وذاك النفس الطيب في طبخ الطعام هي جدتي. جدي الذي علمني فنون التطبيب، وبعضا من أسرار التجارة فقد كان تاجرا ومداويا شعبيا، إضافة لكونه علمني بعضا من أسرار الزراعة والقدرة على تمييز الأعشاب النافعة من غيرها، بل كان ينهرني كي لا أهاب تسلق الأشجار أو لمس الشوك...

كم كان شجاعا –رحمه الله– كان يناديني فايدة؛ إذ يستثقل الهمزة لفظا.

نشأت فتاة غريبة عن بنات جيلي؛ أجمع حداثة الحاضر مع أصالة الماضي، متكيفة مع المدنية ومتطلباتها، عاشقة للطبيعة بكل ما فيها، لا أتقرف من اللعب بالتراب أو جبل الطين، ولا من ملاحقة الفراشات وتسلق الأشجار، وأعشق أكل الأوراق الخضراء من البرية، وما زلت رغم نضوجي تلك الطفلة الرعناء

عند رؤيتي للبرية أتقن إشعال النيران وفنون (الهش والنش)، علّمني كيف أحادث الكائنات وروحها المستترة، علّمني كيف أتفكر في خلق الله... فآمنت منذ نعومة أظفاري بأن الله لم يخلق أيّ شيء عبثا...

وعشقت الطب الشعبي، وفضلت الوصفات الطبيعية على الأدوية الكيميائية، وما زلت أذكر طريقته في تقليم الأشجار، بل حتى أنه أجبرني يوما على التسلق لشجرة تين عملاقة، وتنظيف ما عليها من فطريات تضعف منبتها، وما زلت أذكر عندما زاوجت بين لحائي شجرتي دراق لتحسين نوعية الدراق، صاحبت الخيل والقطط، لكنني حقيقة لا أحب لمس القطط، فقط الخيل.

كنت أحشر نفسي بين الشجيرات باحثة عن دودة أو فراشة لأتفاجأ بأفعى، صرخت وعدت للوراء... ولن أنسى ما حييت كيف هرع جدي ممسكا الأفعى بيديه قاطعا رأسها بأسنانه، ذُهِلت يومها، رجل صلب شجاع، وفجأة تحول من تلك الصلابة لقمة الوداعة والحنان وهو يحملني بين ذراعيه ليطمئن علي، يمسك يدي التي كانت مقارنة بحجم يده العملاقة مثل حجم الفراشة تحط على شجرة لوز معمرة.

ذات يوم كنت أجلس معه و أنا أقرأ، ليأتي رجل كبير في السن يقارب جدي في العمر بل أكبر منه وبصحبته فتاة في الثلاثين على ما أعتقد، ويسلم على جدي بحفاوة ويقول له: يا أبا طاهر هل تذكر صالحة، فيبتسم جدي ويقول: إيييه والله زمان! أسأله

بفضول الأطفال من صالحة؟ ليجيبني والدها، صالحة هي ابنتي وقد أنقذ جدك حياتها يوما، قبل أن يتزوج أبوك من أمك.

أصمم على معرفة القصة، تدخل صالحة لجدتي، وتناديني الجدة لأجلس معهما، لكنني أقطب حاجبي و أكتف يدي وأخبط بقدمي اليمنى على الأرض و أنا أقول: أريد أن أعرف قصة صالحة.

يقول الرجل ممازحا: تبدو أنها نسخة عنك، ويسأل ما اسمك؟ أجيبه فائدة، يقول آه هو أنت؟ وكأنه سمع عن المر افق الشخصي لجدي. فيكمل: اجلسي كي أخبرك، فجلست منصتة بشغف عجيب.

قال: أيام زمان في موسم الحصاد كان عمر صالحة ست سنوات، ولم يكن في ذاك الوقت من أطباء ومستشفيات مثل الآن... أصيبت صالحة بنقص وزن مخيف، ونهم شديد للطعام، لم نستطع فهم هذه المعضلة، تأكل كثيرا، لكن وزنها يتناقص حتى وَهِنَ جسدها ولم تستطع المشي، وأوشكت على الموت...

لنسمع عن جدك وكان شابا قويا معروفا، فأحضرنا صالحة له، ليسألنا بعض الأسئلة ثم يطلب التالي: لقد طلب قدرا كبيرا مليئا بدهن الخروف والسمن البلدي مع الماء وأشعل النار تحته أسفل شجرة، وأخذ صالحة وربطها رأسا على عقب بغصن الشجرة ورأسها نحو القدر موجهة، ربطها بحذر ومتانة ونحن نسأل، وهو ملتزم بالصمت، وأشار لنا أن ننظر لما سيحدث فقط، وكله ثقة ويقين بالله، وكأن الله منحه بصيرة وكرامة.

تجمع الكثيرون وكلنا ننظر وصالحة تبكي... وبدأ القدر بالغليان وفاحت رائحة الدهن منه لترتفع نحو صالحة، وفجأة بدأت صالحة وكأنها تريد التقيؤ. ووالله إنني جلست على ركبتي من هول ما تقيأته، لقد تقيأت حيّة، أقدر طولها بنصف متر، وسقطت في القدر ونحن ننظر لها بتعجب، ثم أمرنا بفك الفتاة وإنزالها، وقال الآن ستصبح بخير، لأسأله مذهولا ما الذي حدث؟

لم يكن التصوير آنذاك معروفا... أجلسنا وقال: هذه البنت دون قصد منها ابتلعت بيضة أفعى، كانت توشك على الخروج. وما إن شعرت الحيّة بدفء معدتها حتى خرجت واستوطنت باب المعدة لتلتهم كل ما يدخل لها، مما سبب نهما للفتاة وهزالا، والأفعى تحبّ رائحة الزفر أي الدهن، لذلك ما إن اشتمت رائحة السمن حتى خرجت، أتم حديثه وكلنا مذهولون، نظرت له تلك اللحظة، وصممت على رسمه، ولم أكن أرسم أساسا، وسألته كيف عرفت؟ قال لا أدري، هذا فضل من الله.

منذ تلك الحادثة وأنا اتقن الرسم بمهارة عجيبة، كيف ولماذا لا أدري؟ قد تظنون أنها من وحي خيالي، ولكنها المذكرة الوحيدة التي نسجتها الحقيقة، ولم ينسجها خيالي.

رحمكما الله يا جدي ويا جدتي وأسكنكما فسيح جنانه.

ما زلت طفلتكما الوفية وسأبقى.

انتهت أيامنا

تعترينا لحظات من الضعف نعجز أمامها عن فعل أي شيء، تسيطر علينا، وتعزلنا عن الواقع وعالم الشعور، تجعلنا أرواحًا هائمة شاردة وأجسادًا مثقلة عاجزة عن الحراك أحيانا، لسبب معلوم أو دونما سبب، تراكمات تفيض بها الروح فتثور بركانا يحرقنا، اجتياح لا يعرف الهوادة أبدا، يمزقنا أشلاء. يَحْبِسُ دموعنا تارة ويفجرها سيولا تارة أخرى. موت يخطف أرواحا عشقناها أو واقعا سرق أرواحا تعلقنا بها، وفي خضم كل هذا ننجو...

نعم، ننجو وشظايا هذا الشعور تبقى وشما عالقا لا يرحل، هذه آخر حكاية لي مع جدّي سأنشرها، ليس لأن ذكرياتي معه قد نفدت، بل فاضت في القلب حد اشتياق كاد ينهشني، هي حروف كأيّ حروف لدى الكثيرين، لكنها لديّ حروف كالسيوف تسعدني وتقتلني. أعلم كم هو سعيد وجدّتي –رحمهما ربي– بحروفي لقد سمعت بوح روحيهما راضيا مرضيا عني، وأعدهما بكتاب فيه أسرار مداواة الناس برّا فيهما، ولكنني أمام حنيني واشتياقي أصبحت حروفي عاجزة تتسايل دموعا وملحها يذهب كل حبر على أوراقي!

ليس من السهل أبدا أن تتذكر انسلاخك عن روحك يوما، لقد فاقت علاقتي بهما أيّ علاقة في هذا الوجود، قد أبالغ في نظر البعض، ولكنّ من دخل قلبي وعَلِمَ حجم الدفء الذي أشعر اني به وذاك الكمّ الهائل من الأمان وسيل الحنان لن يشعر بمبالغتي أبدا.

أشتاق لمطر يغسلني و أنا تحت عباءته أختبئ تارة وتارة أبلل نفسي.

أشتاق للنوم بينهما تتشابك أيديهما فوق رأسي ينظران لي و أنا أدّعي النوم، وأضحك تحت الغطاء، يقتلني الحنين لخبز جدّتي الساخن و أنا وجدّي نتلقفه، ثم نغمسه بالماء ونستلذ بتناوله، أشتاق لصوته ينهرني وينصحني، ولصوتها وهي تتغزل بي، أشتاق لبيت كانوا سكّانه، تخنقني العبرات؛ فلم أعد أدري هل ستغلبني الأشواق وتأخذني لهما أم سأغلبها!

نعم، علمني القوة والحكمة ولكنه نسي أن يعلمني القدرة على مواجهة وجع غيابهما، لقد نسيت ذلك يا جدّي؟! هل تذكر لحظة دخلت البيت و أنت منزو في ذاك الركن البعيد، البيت كلّه ضيوف تبكي؟ لماذا؟ و أين جدّتي؟ اقتربت من غرفتها، لتمنعني أمي، ولكنني نزعت حقيبة المدرسة، واخترقت كل الحواجز البشرية لأراها ممددة بوجهها الملائكي المشع نورا... ناديتها لم ترد عليّ، فأمسكت يدها ووضعتها على خدّي واستحلفتها أن تستيقظ من سباتها، لكنها لم تفعل! ما هو الموت؟ تلك اللحظة

أدركت بأنه هازم القدرات والملذات وخاطف الأرواح! صرخت عودي، عودي لكنك لم تعودي، نزعت وشاحك الذي ما زال معي للآن، وقبلتك وقبلته كثيرا، هل تذكرين؟ لمسات أناملي و أنا أمسح دموع عن وجهك، أملت رأسي على صدرك، ولم أسمع دقات قلبك! انتزعوني من حضنك خوفا عليّ من الصدمة ولم يعلموا بأن إدراكي فاق كل إدراك بالوجع.

ركضت نحوك حبيبي هل تذكر؟! كنت في تلك الزاوية محطما وتلك المرة الأولى التي أرى ضعفك بها.

مهما بلغنا من قوة فإنها تنسف عند فقد الأحبة، فتحتَ ذراعيك وحضنتك وبكينا سوية و أنت تقول: راحت الغالية الحنونة يا فايدة، راحت شمس البيت، راحت وراح معها طعم الحياة، تعلمت الوفاء من حبك لها، ومسحت دموعك فمنعتني وقلت لي: هل أبخل بدموعي عليها، لا، والله لا، ولن...

شعرت بقشعريرة وبرد مفاجئ ما زال يعتريني كلما شعرت بحزن، تقوقعت في حجر جدّي، ولكنني لم أسمع رقص نبضات قلبه مثل كلّ مرة، سمعت نواحها، وآآآه كم هو موجع! سألتك النساء: هل تريد رؤيتها قبل تجهيزها للدفن؟! فزاد نحيب قلبك، وقمتَ متثاقلا تستند على كتفي إلى أن وصلنا غرفتها، وخرج الجميع، فاقتربت منها وقلت: ألا ليت عمري قبل عمرك كان، ولكن الله قدر وما شاء فعل، له الحمد وإليه أنيب، ثم قبلت جبينها.

جدّي، جدّي نسيت أن أخبرك، لقد ابتسمت و أنت تقبلها، ولكنني نسيت أن أخبرك! لقد نزعت إسورتها من يدها وألبستني إياها وقلت لي: لا تفرطي بها يوما. ولم أفعل...

ونظرت نحو السقف وألقيت السلام على روحها، قبلت رأسها مرة أخرى، ودهنت ضفائرها بالمسك، وبقيت شاخصا تتأمل وجهها دون أن تنطق حتى دخلت علينا النساء لتجهيزها.

رحمك الله غاليتي...

رحمك الله أنت وحبيب القلب، و أنار ربي قبركما.

لم يعد جدّي كما كان بعدها، وكأن ابتسامة قلبه غادرته ولم تعد... وهب ما بقي من عمره دعاء لها، وصدقات عن روحها، لم يُتْرَك... كان الجميع يدعونه من بيت لآخر لتسليته وإشغاله، ودون أن يشعر أهلي أستيقظ وسط الليل وأذهب لغرفته، فيبتسم ويحضنني، ونتحدث عن جدّتي للصباح حتى نغفو.

لقد قال لي ذات ليلة: هل تعلمين لماذا اخترتك دونا عن كل أحفادي يا فايدة؟ وتابع... لأنك تشبهين جدتك جدا، تمتلكين دفء عينيها وسحرهما، وعندما أنظر لك بضفائرك أتذكر أول مرة رأيت جدتك فيها، كانت ست النساء في عين قلبي وما زالت.

كم بكيت وقتها كما أفعل الآن شوقا لهما.

خطفتني دراستي الجامعية قليلا عنه، وأمقت دراستي لهذا السبب، لهذا أستحلفكم بالله؛ لا تدعوا شيئا يمنعكم عن من

تحبون، ولا تدعوا الحجج وتتذرعوا بالظروف، فأنتم لا تعلمون متى سيرحلون دون عودة، وسأخبركم سرا لا أدري هل ذاكرتي خانتني أم أنا خنتها، فأنا لا أعلم متى غادرت روح جدّي جسده، ولست أتذكر أبدا أبدا، جلّ ما أتذكره أنه هنا بين ضلوعي نائم أغطيه كلّ ليلة بدعو اتي...

آآآه يا الهي، الطف بمشتاق حبيب ذهب دون عودة!

السلام عليكما يوم مولدكما، ويوم مماتكما، ويوم مبعثكما.

شجاع

في نظرهم خائن حقير، وفي نظري شجاع... ستفهمون لاحقًا، في حياتي مع جدّي–رحمه الله– جرت العادة أن نحضر حفلات الزفاف في المنازل ولم تكن صالات (قاعات) الأفراح مرغوبة أو شائعة حتى وقت قريب لا يزيد عن العقد.

كانت الأعراس فيها ألفة وتقارب لا مجاملات وبذخ كاذب، كانت تتصف بالسترة والبساطة والآن مع الهواتف النقالة ومواقع التواصل أصبحت عوراتنا مفضوحة وغلطاتنا مشهودة وحركاتنا مرصودة... كم أمقت هذا!

دُعيت لحفل زفاف في صالة لأول مرة بصحبة جدّي وجدّتي رحمهما ربي، حيث كان العريس الابن الأكبر لابن عم جدّي، وكان والده تاجرًا غنيًّا وله الكثير من المعارف، لذلك قرر إقامة حفل الزفاف في صالة ضخمة تليق بالضيوف، ومن باب التجمل الاجتماعي مرددًا عبارة: (سأقيم لك فرحا تتكلم كلّ الناس في روعته).

سبحان الله! هذا ما حدث... كلّ الناس تكلمت في أحداث الزفاف ليس لروعته ومظاهر البذخ فيه، بل لما حدث فيه، ماهر هو العريس وهو في السابعة والعشرين من عمره؛ يعمل تاجرًا

مع والده في إطارات السيارات بعد أن أنهى دراسة الاقتصاد وكالعادة، قرر والده تزويجه زواجًا تقليديًّا من ابنة تاجر آخر على قدر من العلم والجمال ومن عائلة كريمة، ولكننا نغفل أحيانا بأننا مهما قدمنا لأبنائنا من مواصفات يُرجّحُ فيها كمال المواصفات على نقصانها؛ تبقى للنفس أهواء أخرى.

سأوضح لكم أكثر، قد يتعجب البعض من رجل يخون زوجته الفائقة في جمالها مع أخرى لا تصل لربع جمالها. القصة ليست جمالًا، القصة تو افق أرواح وشغف بين روحين؛ ففقدانه للشغف والتواصل مع زوجته جعلها في نظره غير جميلة وراح يبحث عما ينقصه عند أخرى...

طبعا هذا ليس مبررًا كي يخون الرجل زوجته أو العكس، فمن فقد لغة التواصل الروحاني مع شريكه أمامه ثلاثة خيارات الصبر والحوار بُغية الاصلاح، فإن حاول مرات وفشل ينتقل للصمت والتعايش مقدمًا نموذجًا للتضحية والإيثار شريطة أن يتحمل خياره هذا، ويضحي راغبًا دون تمنن أو اكتئاب أو نقمة. فإن فشل في ذلك وكانت التضحية فوق طاقته عليه الانفصال عن هذا الشريك بأسلوب حضاري راقٍ متفق عليه؛ لا ضرر ولا ضرار فيه، مع إيفاء كل واحد فيهما الحقّ المفروض عليه للآخر، ليسأل الله العوض فيؤتي الله كل واحد منهما من فضله، ولو حقّا وصلنا هذا الحدّ من الرقي الإنساني في العلاقات لوجدتم قاعات المحاكم خالية!

نعود لماهر ذاك الشاب الذي ارتبط بهناء ابنة صديق والده، وكلما سألته والدته كيف هناء أثناء الخطبة؟ كان يبتسم رائعة يا أمي كاملة مكملة على قول أجدادنا في وصف العروس المثالية، ولكن قلبي لم يدق لها، ولا أشعر بانسجام معها.

تردّ أمه: هذا سيظهر مع العشرة بعد الزواج.

خطأ... خطأ... يظهر الحب والشغف الروحاني بعد الزواج في حالات نادرة، منها زوجة ذكية قادرة على جعل الرجل يلهف حبًّا وراءها دون أن يكلّ أو يملّ، ومثل هذه الزوجة للأسف قليل.

لذلك يا جماعة! الخطبة فترة تعارف لا تمثيل، فمن لم يجد راحة مع شريكه فيها لا يستمر بحجة أن هذا سيتعدل بعد الزواج، بل العكس تمامًا تسوء الأمور وتتفاقم.

جاء اليوم المشهود لزفاف ماهر الوسيم وهناء الجميلة والكل ينظر لهما بعين الانبهار وكم هما لائقين لبعضهما، لطالما اتصف الكثير من البشر بالحماقة في الحكم على المظاهر.

بدأت مراسيم الحفل، وقد كان في فندق فخم، والمفترض بعد الحفل أن يبيت العريسان ليلتهما فيه استعدادًا للسفر خارجا لشهر العسل، الحفل كان مختلطًا على غير ما جرت عليه العادة في أفراحنا التقليدية، كنت أتوسط جدّي وجدتي و أنظر لجدّي الذي شعرت من عينيه بشعور غريب، وكأنه كان رافضًا لكل ما يحدث.

تقدم العريسان لكعكة زفافهما يمسكان سيفًا معًا وفي الجهة المقابلة رأيت رندة وهي ابنة جير اننا، فلوّحت بيدها نحوي، مما لفت نظر ماهر نحوها لأنها أيضا في الجهة المقابلة له، ما حدث بين ماهر ورندة تلك اللحظة شيء لن أنساه ما حييت، الله أكبر! وكأنني رأيت سهمين من الحب يخترقان كيانهما، وكأن العالم قد توقف عندهما، الكلّ يصرخ هيا يا ماهر اقطع الكعكة وماهر محدق في رندة.

هذا الشيء أربك رندة فجعلها تهرب وتختبئ خلف جدّي وجدتي اللذين لاحظا ما حدث مثلي. قطع ماهر الكعكة مسرعًا وراحت عيناه تبحثان عن رندة. من كان شديد الملاحظة ميّز تغيّر ماهر المفاجئ، ومن أشغلته مراسيم العرس لم يلحظ شيئا.

طوال الحفل كان ماهر كالدمية يعطونه الأوامر فينفذها، وعيناه تبحث عن رندة، بل أثناء رقصه مع الشباب اقترب مني وسألني هل هذه البنت مرتبطة، فارتبكت ولم أرد، وحدثت جدّي بسؤاله، فأمرنا أنا ورندة بالانزواء.

لكنه لم ييأس، وذهب وسأل فتاة أخرى وبدورها أجابته: لا، لقد تخرجت حديثًا، وكم ظهرت عليه أمارات الفرح! أمرنا جدّي بالمغادرة وكأنه شعر بشيء غريب، وشدّد على رندة أن تحضر معنا، و أثناء الطريق سألها هل تعرفين ماهرًا سابقًا؟ فأجابت بصوت مرتفع والحمرة على وجهها: لاا!، لاا!، فابتسم وقال: حسنًا أيتها الرندة.

كعادتي اقتربت من جدّي أرمش بعيوني فعرف مقصدي، وبادر للإجابة قبل السؤال، سألتها يا فايدة هل تعرف ماهر قبل ذلك لأن نظراته لها كانت غريبة ومقصودة.

زاد خجل رندة، ولكن العجيب ما سمعناه في اليوم التالي، الكلّ يتحدث: هل سمعتم، لقد طلق ماهر هناء في نفس ليلة زفافهما بحضور أهلها وأهله لأنه أعلن أنه يحب فتاة أخرى، وأنه غير قادر على الاستمرار مع هناء ليظلمها، مؤكدًّا بأنّ هناء تستحق رجلًا أفضل منه، لكنّ هذا أغضب والدها وإخوتها مما تسبب في شجار؛ نجم عنه ضرب ماهر وتدخل الشرطة.

الكل كان يردد ماهر حقير خائن، إلا أنا وجدّي فقد نظرنا له نظرة احترام، لقد كان شجاعًا، على الأقل لم يخدع نفسه، ولم يخدع هناء، ولم يستغل ليلة زفافه منها لإشباع غريزته، كان رجلًا شجاعًا؛ لأنني أعتقد بأن تركها فتاة عذراء خير من أن يتركها زوجة مجروحة، ربما تكون قد حملت بطفل منه.

معالجة الأمور في بداياتها حكمة وشجاعة والصبر على العلل يزيدها.

الشاب وجد قلبه ينبض لرندة، وجد الحبّ فيها رغم وجود عروس جميلة جدًّا بين يديه. هذا يدلّ على شغف حقيقي أصاب قلبه، وتعلق برندة؛ تلك الفتاة الحيوية، بريئة الملامح، جميلة الابتسامة، في نظر الكثيرين هي أقلّ جمالًا من هناء، ولكن في عين قلبه هي من يريد.

طلب أهلها تعويضًا، واستجاب والد ماهر لهم وفي عاداتنا طلبوا بياضًا، وهي أن ترفع عشيرة (قبيلة) ماهر أعلامًا بيضاء تدل على عفة هناء وشرفها، و أنه تركها ليس لعيب فيها بل لأنه يحب أخرى.

سبحان الله! هذا الأمر جعل الكثيرين يتقدمون للزواج من هناء، وشاء الله أن تتزوج من ابن عمها نهاية المطاف، وكان رجلًا رائعًا، الكل يشيد بخلقه، أما أهل رندة فقد رفضوا ماهرًا عدة مرات خوفًا من كلام الناس وإشاعاتهم، فقد تقوّل الكثيرون على أنهما كانا يحبان بعضهما قبل الزفاف بفترة طويلة، وأنها حضرت الزفاف لتخرّبه وهي بريئة من هذا كلّه.

لقد بكت أياما وهي تقسم أنها رأته لأول مرة في حياتها يوم زفافه...

مجتمع لا يخاف الله، وما أسهل القذف عندهم وإطلاق الإشاعات! رندة رفضت ماهرًا أيضا، لكنّ ماهر بقي مصرًّا على التقدم لخطبتها وإرسال أهله حتى جاء وفد منهم مرة يعرضون ما يريد أهلها من شروط مقابل تزويج رندة لماهر، لكن رندة رفضت فدخل جدّي ووالدها عليها وقال: إن كنت ترفضين لأجل الناس، فقد خسرت، وإن كنت ترفضين لأجل الشائعات فقد خسرت، وإن كنت ترفضين لأنك لا تريدينه فقد كسبت.

فهل ترفضينه لأنك لا تريدينه. هبه تلبكت وقتها أمام الجميع وتأتأت: ل.. لا.. ل.. لا.. لس.. تُ.. أرفض.. ه، لأني لا أريي.. ده.

وفجأة انطلق لسانها: أنا مو افقة لأنه رائع.

دُهِشَ والدها وضحك جدّي بشدة وخرجا ليخبرا أهل ماهر أن اشربوا قهوتكم، فقد لُبِيَ طلبكم والله محييكم.

هل تعلمون كنت في السادسة عشرة من عمري آنذاك واعية لكل هذه الأمور، وما زلت لم أر للآن أجمل من ماهر ورندة زوجين، حبّ صادق ما جمعهما، ازدادت جمالًا به وازداد وسامة بها رغم أنه تعرض بعد ثلاث سنوات لهجمة من هجمات التصلب اللويحي في قدميه، وعجز عن المشي فترة، إلا أن رندة ضربت أروع الأمثلة في الحب والوفاء، فقد كانت قدميه عندما يمشي حتى تحسن بفضل الله... رزقهما ربي ولدين وبنتا، واكتفيا بذلك؛ كي تتفرغ للعناية بصحته وإدارة تجارته فترة هجمات المرض عليه. حتى صارت جيشه وأصبح الجميع يتحدث بروعتها... سألتها بعد سنوات هل ما زال ذلك الشغف بينكما كما كان أول مرة؟

أخذت نفسًا وأدمعت قائلة: وربّ محمد يا فائدة إني أحتاج قلبًا آخرًا ليسع حبي له، فقد فاض قلبي الأول بحبه.

الله الله! دقّ قلبي مرات وقتها، ونظرت للسماء أدعو الله حبّا نابضًا ما حييت لا يموت لا يموت لا يموت.

لا تترددوا في اتخاذ قرار قد يدمر أو يسعد حياتكم.

الشجاعة ليست مواجهة العدو فقط! الشجاعة مواجهة أقرب الناس لتحقيق ما تريد.

لن تندم إن قرأتها

هل تعلمون؟! في هذه الحياة كل شيء بقدر، ومخطئ من يظن بأن هنالك شيئا يأتي عبثًا في هذه الحياة، سواء أكان شخصًا أم شيئًا أم عملًا... كثيرون ينعتون هذه الأمور صدفة، وقليلون يعلمون بأنها أقدار مقدرة؛ كتبت على الجبين في أرحامنا...

لقد رأيت في حياتي العديد من الأحداث بصحبة جدّي والتي جعلت مني شخصًا ناضجًا قبل أوانه.

من هذه الأحداث حكايات فيها العجب العُجاب؛ قد يصدقها البعض، وقد ينكرها البعض الآخر، ولكنني قد أؤلف أي شيء إلّا حياتي مع جدّي–رحمه الله– فهي الواقع الأجمل، الذي بدأت بنشره قبل ثلاثة أعوام تخليدًا لذكراه، وليستفيد الناس من حكمته.

كان لنا جارة دائمة الخلاف مع زوجها، وصوتهما يخترق الجدران إلى مسامعنا.

لديهما ابنة جميلة جدًّا تكبرني بعام، كنت أحب تأمل جمالها، وأستغرب أنها وحيدة، حيث جرت العادة أن لا تكتفي الأسرة العربية بطفل خصوصًا إن كان فتاة.

كانت في الثالثة عشر من عمرها آنذاك وفي صبيحة أحد الأيام استفقنا على صراخ الأم تستنجد: ابنتي، ابنتي.

هرعنا جميعا وكذلك بقية الجيران لنجد الفتاة تنزف دما بشكل مخيف من كتفها، أخذها جدّي مسرعًا برفقة والدها للمشفى لأنه أدرك أنها فقدت دمًا كثيرًا بسبب جرحها البليغ.

تلك كانت المرة الأولى التي أسمع فيها رجلا يطلق امرأته مباشرة، حيث طلقها عازمًا أن لا تعود له، وأن لا ترى ابنتها مجددًا.

لم نفهم السبب والكل يحاول تهدئة الأحداث، لكن الزوج رمقها بنظرة استحقار عجيبة وهرع مع جدّي يحمل صغيرته للمشفى.

أما أنا وجدتي فقد بقينا بصحبة بعض الجارات مع المرأة الناحبة الباكية، التي توجهت للسماء مرددة: لم أقصد... لم أقصد أن أفعل بصغيرتي ذلك.

لتكمل لنا أنها تشاجرت مع زوجها بسبب عودته متأخرًا دائمًا؛ لأنها لم تنجب له بعد طفلتهما، وبدأت بالشتم عليه، لكنها تؤكد أنه استفزها بصمته، ولم يرد عليها بحرف لتمسك تمثالًا معدنيًّا كان أمامها فترميه على الزوج في نوبة غضب لتتلقاه الفتاة كي تحمي والدها وهي تردد: كفاك! هو لم يفعل ذنبًا عظيمًا، لكن التمثال اخترق كتف الفتاة مسببًا جرحًا بليغًا.

أرادت النسوة توبيخها لكن جدتي –رحمها الله– غمزت لهن أن يصمتن و أنه يكفيها مصابها.

بعد عودة جدّي متأخرًا ذاك اليوم، وقد غاب ربما سبع ساعات عنّا، وعاد مرهقًا علمنا بأن الفتاة بخير، ولكنها احتاجت إلى وحدة دم إضافة إلى خياطة جرحها بتسع غرزات أثارت غضب الوالد الذي أقسم أن لا تعود لذمته ما بقي حيّا.

وهذا ما حدث، ما إن تحسنت ليلى حتى كان والدها قد جهز أمر سفرهما إلى كندا عند قريب له، وفشلت محاولات أهل الزوجة في الإصلاح أو رؤية الفتاة مجددًا، حيث ترك عند جدّي كامل حقوقها مشهّدا بعضًا من رجالات الحي ليبرأ منه، وبعدها سافر ولم نعلم عنه شيئا.

أما الزوجة فقد سمعنا عنها إشاعات كثيرة من ضمنها أنها أصيبت بحالة نفسية، أو ضرب من الجنون؛ جعل أهلها يربطونها كي لا تخرج في الشارع، فتفضحهم على حد قولهم.

مرّت الأيام وكبرت و أنا أسأل جدّي بين الحين والآخر: هل سمعت شيئا عن والد ليلى؟ فيؤكد لي أنه سمع أنه تزوج، وفتح مطعمًا للحمص والفلافل في كندا؛ لاقى نجاحًا باهرًا.

توفي جدّي الغالي في السنة الثانية من دراستي الجامعية، وقد كانت فترة صعبة جدّا عليّ، ولكني اعتدت منه القوة وعدم إظهار ضعفي مما جعلني آخذ 21 ساعة دراسية ذاك الفصل؛ لأدفن حالي في الدراسة محاولة تناسي أنه لم يعد موجودًا في حياتي.

وهذا يعتبر رقمًا قياسيًّا لعدد الساعات الدراسية في الأسبوع... وشاء الله أن أخيّر في مادة اختيارية، ليست من ضمن مساق التخصص تخفيفًا عليّ، وهذا من قوانين الجامعة، فاخترت مادة الصحة النفسية مع دكتور الكل يمقته؛ لأن أسئلته صعبة جدّا والكل يصفه بالمجنون.

لم أكن في مزاج يجعلني أبالي للدكتور أو لصعوبة المادة وبالفعل أخذت هذه المادة مع الدكتور أسعد يسر الله دربه أينما كان.

كنت في المحاضرة هادئة جدّا لا أناقش ولا أتفاعل؛ أكتفي بتدوين ما أراه مناسبًا، وأجلس في الأمام دومًا في مقعد على الزاوية اليمنى حتى اعتاد الطلبة وجودي فيه، وكذلك الدكتور فمجرد أن يأخذ الحضور والغياب ينظر للمقعد، فإن رآني أسقط قراءة اسمي.

ليتفاجأ الجميع يومًا بأنه طلب مني الوقوف ثم قال: المحاضرة القادمة في مؤسسة الرعاية الصحية، ووصف لنا العنوان، فلا تحضروا القاعة هنا، وستكون فائدة هي المحاضِر فيها.

لم أناقش ولم تظهر عليّ الدهشة وهذا جعل الدكتور أسعد يبتسم ويطلب مني اللحاق به إلى المكتب ليشرح لي المطلوب... وبالفعل هذا ما حدث، ذهبت معه وجلست دون أن أسأل شيئا فقال لي: هل تعلمين؟ كنت أفتخر في نفسي و أنا أتلاعب في صحة

الطلاب النفسية بأسئلة جهنمية وأسلوب معقد، ربما لأن تخصصنا حقيقة نهاية المطاف يقود للمرض النفسي، لا للصحة النفسية حتى رأيت صمتك الذي قهرني، حتى في الامتحان أجبت أسئلتي وكأنك حللت شخصيتي وكشفتها، وهذا دفعني لكرهك بدايةً، ولكن سرعان ما وجدت فيك ندّا أتمناه منذ زمن ليعدل سلوكي.

لذلك قررت تحديك في حالة أعجزت الأطباء والطلبة لامرأة مصابة بنوع من الفصام؛ أرجو منك دراسة حالتها، وإخبارنا عنها يوم الأحد القادم.

خلال حديثه هذا لم أقاطعه أبدا، انتظرت أن ينهي فأجبته: سمعًا وطاعة، أريد الاسم وتصريح دراسة الحالة، فناولني ملفا قد جهزه، وكأنه كان متيقنًا من مو افقتي.

سأخبركم أمرًا؛ ليس تميّزًا مني ما حدث، بل فقدُ جدّي جعل كل صعب سهلا؛ لأنه أصعب ما عشته، وكل ما يحدث كان عندي هيّنا فلا عزيز بمقامه، وكل ما حدث كان قدرًا من الله لألتقي أم ليلى بعد سنوات.

نعم، لقد كانت تلك المرأة أم ليلى جارتنا التي جرحت كتف صغيرتها غير عامدة... ولم تُذكَر تلك الحادثة في ملفها، ولكنني بمجرد رؤيتي لها شممت رائحة جدّي وعبق الذكريات، وعرفت تشخيص مصابها ليس ذكاء مني أو جدارة، بل محض قدروتيسير من الله له الحمد عليه.

لم تنطق أم ليلى منذ سنوات، وتبقى شاخصة البصر غير مبالية بمن حولها، وبعد وفاة والدتها وزواج إخوتها وضعوها في المصحة؛ لأنه ما من أحد متفرغ للعناية بها.

جلست وأمسكت يدها وقلت لها: لا بدّ أنك مشتاقة لليلى، فنظرت لي حتى استغرب الطبيب وجلس يتابعنا، أدمعت واحضنتني، ولأول مرة تسألني: هل تعرفينها؟ فعرفتها بنفسي، وهمست: أعلم أنك لست مجنونة، ولكن شوقك لليلى ولسعات الندم فتكت بك... كلنا نعلم أنك لم تقصدي أذيتها.

انهارت بالبكاء بشدة حتى أوشك الطبيب أن يعطيها إبرة مهدئة، فقلت له: دعها تبكي بوعي... الوعي سيريحها، تخدرون المرضى فتزيدون جنونهم، فعقّد حاجبيه ونظر لي، ثم توجه للهاتف قائلا: سأحادث الدكتور المشرف عليك، وخفض صوته أثناء حديثه مع دكتوري.

لم أبال أيضا وحضنتها وأخبرتها: ليلى تحبك، وتشتاقك، وقد ورثت جمالك... فقالت بمرارة: لم يمنحوني فرصة لأعتذر لها، ولأوضح لها أني لست شريرة.

قلت: لا حاجة، هي تعلم وستعود باحثة عنك، فلا تجعلينها تراك مجنونة.

نهضت فجأة، وذهبت للمرآة لوهلة، فخاف الطبيب، وظنها ستقدم على أذية... لا أخفيكم ضحكت في داخلي عليه بشدة، وأدركت أنه المجنون.

قبل أن تصبح طبيبًا تأكد أن تكون إنسانًا.

ذهبت ومشطت شعرها ولفت حجابها الذي لم تكن تدرك أنه على أكتافها ساحلا... ما هي إلا ثلث ساعة حتى حضر الدكتور أسعد، و أنا أظفّر شعر أم ليلى.

هل تعلمون ماذا فعل؟ ضرب الحائط بقبضة يده، وبدأ يضحك بهستيرية، وينظر للطبيب تارة ولي تارة وهو يقول: جنيّة أنت، وربي جنيّة، ولو قبلت بي زوجًا اليوم سأقيم العرس.

ولكنني أعلم أنني لو تزوجت لكنتِ في عمر أصغر بناتي. فابتسمت وقلت له تزوج وكفاك فلسفة مَرَضِيّة، أضعت من عمرك الكثير في نظريات لا تسمن ولا تغني من جوع.

كانت أول مرة أرى فيها الدكتور أسعد ضعيفًا، ذاك الضعف جميل لأنه يكشف إنسانيتنا.

سألني: وهل من امرأة ترضى بكهل مثلي؟ قلت: الكثيرات.

رأيت في عينيه دفئًا وتفاؤلًا ورأيت جدّي تلك اللحظة في كل مكان يلوّح لي دامعًا... أدركت لحظتها أنه لن يموت أبدًا؛ لأن الموت هو النسيان و أنا لن أنساه ما حييت، وعدت لأنقر رأس أمي و أبي في مساعدتي لأجد والد ليلى، ولم أقطع زيارة أم ليلى أبدا حتى نجحت في التواصل مع ليلى عبر الفيسبوك، وأخبرتها بحال أمها... رفض والدها زيارتها بداية الأمر، ولكن بعد شهر اقتنع تحت إلحاح دموع فتاة مشتاقة لأمها.

كنت في التاسعة عشرة تقريبا وهي في العشرين من عمرها.

جاءت والتقت بأمها، وأظهرت علامة الحادث في كتفها، وهي تقول: كلما كنت أشتاقك كنت أنظر لكتفي وأعلم أنه خطئي أن أتدخل بينكما ذاك اليوم، وهذا كان كفيلًا بشفاء الخالة نوال التي احتاجت ثلاثة أشهر لتعود معافاة بفضل الله، وتجلى جمالها قمرًا.

قد تتعجبون، ولكنها الآن زوجة للدكتور أسعد، حيث نشأت علاقة صداقة وود بينهما تطورت لحب، أثمر بطفل جميل رغم أنها في السادسة والأربعين من عمرها، وهو في التاسعة والخمسين.

ما زالت ليلى في كندا تكمل دراساتها العليا، وعلى تواصل مع أمها وما زلت أتعلم من جدّي رغم رحيله عنهم لا عني.

هذه الحكاية من حكاياتي مع جدّي مهداة لدكتوري الرائع أسعد وزوجته نوال، واللذين التقيتهما اليوم بعد غياب.

ومهداة لكل متشائم لا يؤمن بالقدر خيره وشرّه.

أحبتي، اصنعوا من أقداركم أفراحا بخيرها وشرّها، وتيقنوا أن الله تعالى قال لمن يعقلون ولمن يتفكرون في آياته لأنه يعلم أن القلة منّا فقط ترضى بقدرها خيره وشرّه، وتعقله لتصنع منه صحة نفسية.

أحبك جدّي، ورحمك الله... أحبك جدّا

عادات حمقاء

هل تعلمون؟! في هذه الحياة تحكمنا عادات حمقاء ورغم يقيننا بحماقتها ما زالت قابعة تتربع عرش مجتمعاتنا، ومن يخترقها معيوبٌ.

لست أتحدث عن الأعراف فالعرف له احترامه، ولا عن التقاليد فهي جزء من ثقافاتنا، إنما أتحدث عن عادات منبعها الجهل ولا تمت للدين بصلة، مثل أن لا تورث الفتاة، أو أن لا تُستشار في زواجها، أو أن يجبر الأخ على الزواج من زوجة أخيه في حالة وفاة أخيه.

ولهذا في جعبتي مع جدّي حكاية، حيث كان لصديق جدّي – رحمهما الله– أربعة أبناء، الكبير فيهم شيخ منتسب للجماعات الدينية، ولكل شخص وجهته وفكره، مع أن ديننا واحد وواضح، ولا داعي لهذه الفِرق، فرّق الله من يؤسسها عن عافيته، لأنها إثارة للفتن لا أكثر.

كان شرطه أن يتزوج من فتاة في السادسة عشرة من عمرها بحجة أنها ستكون نقية، وسيربيها على طريقته، وسيكون متيقنًا من أنه لا علاقات سابقة لها مع شباب آخرين، متناسيا أنها قد تتفتح عنده لتعيش مراهقتها من خلف ظهره.

الظروف لا تحدد أدب الفتاة من عدمه، الأدب سلوك مختار نابع من التربية الصالحة، فالفتاة المؤدبة تبقى مؤدبة لو بين عشرين رجلا، وغير المؤدبة لو حبسناها لنكحت الجدران!

ضحكت من شرطه، فقد كنت وقتها في الخامسة عشرة من عمري، وتعجبت كيف يريد الزواج من طفلة!

لا تقولوا: لقد كانت أمهاتنا يتزوجن في هذا السن، لا تقيسوا بمقاييس لا تناسب زماننا، فمن الحماقات أن تظن أن حذاءك في الطفولة سيناسبك في الشباب.

الحياة تتغير والناس يتغيرون، والذكي من واكب التغيرات محافظًا على أصالته ممسكًا العصا من الوسط.

أما إخوته فقد واكبوا زمانهم، وأكملوا دراساتهم الجامعية يحلمون بشريكة حياة جامعية مثقفة، وهذا شيء طبيعي وفي نفس الوقت كل الود والاحترام لمن لم تتح لهم أو لهن استكمال الدراسة الجامعية، فالشهادات لا تعكس بالضرورة ثقافة ورقي الإنسان... ولكن التوافق في العلاقات أمر مريح.

تزوج حسين من فتاة في الخامسة عشرة وجعلها ترتدي الخمار فلم يرها حتى إخوته، ثم تزوج بعده أحمد وعلي أخواه، ولم يبق إلا يوسف، فقد كان في سنته الجامعية الأخيرة.

شاء القدر أن يرزق حسين بفتاة من زوجته، وما أن بلغت شهرها الثالث حتى تعرض لحادث سير أودى بحياته –رحمه الله–

وكان الأمر مفجعا لأنه الابن البكر للأسرة، ومحبوب لسماحة طباعه، ولم يتعد التاسعة والعشرين من عمره، وطفلته لا تزال رضيعة، وزوجته لم تتعد السابعة عشرة من عمرها، مما جعل والده يقرر في اليوم الثالث لعزاء ابنه أن رباب زوجة حسين ستكون زوجة ليوسف ابنه الأصغر ما إن تتم عدتها.

هذا الأمر كان صدمة جعلت من يوسف شابًا محطمًا؛ يعيش على أعصابه داعيًا أن تطول عدتها حتى يجد حلًّا مناسبا، لكن والده أصرّ على ذلك، ولم يستجب لنداءات ورجاءات يوسف بأنه لم يطق تخيلها زوجة له؛ لأنه يعتبرها أخته لا غير، وهذا سيعذبه لأنه سيتخيل حسين إن أصبحت زوجته، ويراه يرقبه في كل محل.

لكن الوالد عنيد كشجرة صنوبر وأصرّ على هذا الزواج.

وبالفعل تم تزويجهما لبعض، ولكن لا أحد تلك الفترة كان يعلم بأن يوسف أخبرها منذ أول ليلة أنه عاجز عن تقبلها زوجة، و أنه يحب زميلته في الجامعة، وأنها ستكون كأخت له لا ترى له عورة، ولا تلمسه، أو تنام في نفس الغرفة معه.

استجابت رباب للأمر، ومما زاد الطين بلّة، أن رباب لم تكن فتاة جميلة أو خبيرة بقلوب الرجال، فزادت الهوة بينهما... ولا ذنب لها، ولا له...

عام وهما يتعذبان حتى هداه الله أن يأتي لجدّي، ويفصح له بالأمر مما جعل جدّي يسارع لطلب رباب وسؤالها: هل أنت راضية بحياتك معه؟

أجابت مباشرة وهي تبكي أمامي وأمام جدتي –رحمها الله– بأنها لا تريده، بل تكرهه لأنه أهملها وجرحها، ولكنها خائفة من أسرتها ووالده بأن تطلب الطلاق. فطلب جدّي منهما أن يعودا ووعدهما بحل الأمر.

ذهب جدّي لصديقه أبي حسين وقال له: رحم الله حسين، فقد رحل وبقي لك اثنان أحمد وعلي حماهما الله، ردّ أبو حسين: بل ثلاثة فقد نسيت يوسف. فسأله جدّي متعجبًا، وهل يوسف على قيد الحياة؟ فغضب أبو حسين وقال: أفقدت عقلك يا أبا طاهر؟

قال جدّي: أظنه ميت الروح مذ أجبرته على الزواج بزوجة أخيه، وقد يموت جسده قهرًا قريبًا إن لم تسارع لإنقاذه. فصمت الرجل، ليخبره جدّي بالتفاصيل... ولله الحمد قد اقتنع بوجهة نظر جدّي، ونادى يوسف قائلًا له: سامحني، ظننتك ستكون سعيدًا، وأردت أن لا تتربى ابنة أخيك مع رجل غريب.

بكيا بحرقة كما روى لي جدّي وقتها.

تفارق يوسف ورباب و آتى الله كل واحد من فضله... تزوج يوسف من زميلته بعد عام على طلاقه، أما رباب عندما شاع الأمر بأنه لم يلمسها، وأنها بقيت ضيفة في بيت يوسف تقدم لخطبتها صديق حسين –رحمه الله– كزوجة ثانية، وتمت الموافقة عليه، وسمعنا بأنها أنجبت منه ثلاثة أطفال بعدها، و أنه كان رحيمًا بها، أما ابنة حسين فقد تربت عند جدتها والدة رباب.

الزواج خيار لا إجبار، ولا ضير أن تتزوج من زوجة أخيك الميت، لكن راغبًا حتى لا تُظلم بين يديك.

ألم يقل رب العباد: لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

فلماذا نأتي نحن ونكلف الآخرين فوق طاقاتهم؟

لا تجبروا إلا لتأديب.

تضحية

سألني أحدهم هل يمكنك الزواج من شخص لا تحبينه و أنت للحب عنوان ومقال؟

أجبته: الحب أيضا هو الإنقاذ والمساعدة ومدّ يد العون للآخرين. فقد نضحّي بالحب لأجل الآخرين، وهذا من أرقى أوجه السمو الإنساني ومن أصعب التضحيات على الإطلاق، فأنت لا تضحّي بشيء مادّي، أنت تضحّي بعمرك وحياتك وسعادتك لتعيش ما بقي على الأطلال؛ تعيسًا بين حاضرك وماضيك، ولكن رغم كل هذا تبقى النية هي الأسمى ومن ترك شيئًا ابتغاء مرضاة الله أرضاه وأعطاه من حيث لا يحتسب، فلعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا...

قشعريرة تجتاحنا وغصات نبتلعها شوقا على من فقدناهم بسبب قرار التضحية هذا اللهم صبرًا صبرًا لقلوب أنت وحدك سلطانها ومولاها.

أثار هذا الحديث أشجاني وذكّرني بجدّي -رحمه الله- عندما جاءه رجل يسأله: أنه يحبّ امرأة أخرى غير زوجته، ويريد الارتباط بها، ولكنها تشترط عليه أن يطلّق زوجته أم أطفاله الثلاثة... كنت قد نضجت وبدأت الكتابة وقتها، لذلك كان جدّي

–رحمه الله– يجعلني أجلس قريبة من مجلسه خلف باب من القشّ يزيّن مجلس الضيافة...

كان يثق بي ويعلم أنني لن أفشي سرّ أحد أبدا، ويستمتع في مناقشة القضية معي بعد ذهاب ضيوفه، ولكنني الآن أدركت لماذا كان يطلب مني الجلوس، وكأنه كان يعلم أنني يوما ما سأكتبها، و أنشرها بحدسه، فيستفيد الناس منها ولو بمقدار حبّة من خردل.

كان جدّي متمهلًا جدًّا في النصح واعطاء القرارات. لذلك طلب من الرجل أن يفكر في تساؤلات سيطرحها عليه ليلة كاملة ويعود له في اليوم التالي لينصحه بما يرضي الله تعالى.

قال له: تخيّل أنك تزوجتها وطلقت أم أطفالك، وتشتت الأطفال بينكما؛ لأن حبيبتك لا تريد أن يشاركك بها أخرى رغم أنها أحبتك وهي تعلم أنك لأخرى، ثم ضع مقياسًا لسعادتك...

هل أنت قبل تطليقها أو بعده ستكون أسعد؟! ثم مقياسًا لسعادة صغارك قبل طلاق أمهم أو بعده سيكونون أسعد؟ ثم مقياسًا لزوجتك قبل تطليقها أو بعده ستكون أسعد؟ ثم لأسرة زوجتك قبل أو بعد سيكون أهلها أسعد؟

ولكنني أحبها، وحقّي أن أبحث عن سعادتي.

ابتسم جدّي وردّ عليه ولماذا جئت تطلب نصحي ما دمت تعلم أنه من حقك أن تجد سعادتك؟

تلعثم الرجل وقال: لأن زوجتي بنت حلال ولم أر منها إلا الخير وأشعر بالذنب، ولأنني أحبّ أطفالي ولا أريد أن يكرهوني، ولكني أحبها!!! أحبها!!!...

هوّن عليك يا طارق هكذا ردّ عليه جدّي، ثم سأله وهل هي تحبك كما تحبها؟ فأجاب بفخر كثيرًا كثيرًا (تموت في الأرض التي أمشي عليها)...

فأجابه جدّي لا نريدها أن تموت، كل شيء ولا أن تموت حبيبتك...

ولكن اطلب منها أن تقبل بك زوجًا دون تطليقك لزوجتك، فهذا أهون من موتها في طريق تمشي أنت عليها، فارتبك الرجل وشعر بالحرج.

تابع جدّي: إن كانت حقّا تحبك ستقبل بك أليس كذلك؟

كان الرجل و اقفًا، ولكنه بعد سؤال جدّي أخذ نفسًا عميقًا وجلس.

تابع جدّي: يا بنيّ لا تدع الحبّ يغويك فتستبدل الذي هو خير بما هو شر.

أنت ستعيش معها عمرًا، افرض أن زوجتك بعد الطلاق رفضت حضانة أطفالها، فهل حبيبتك ستكون أمّا صالحة لهم، أو ستترك أطفالك في الشوارع لترضيها! لأنّ من شرّطت تطليق الأولى لا تعرف للضمير عنوانًا، فكيف ستعرف لأطفالك حنانًا؟!

لا يهم أن نحبّ ونهرع وراء حبنا المهم أن نقف أمام المرآة نحترم أنفسنا وأن ننام على الوسادة مرتاحين أننا لم نظلم أحدًا بقرار أناني يوما ما.

بعد ذهابه أيقن جدّي أنه لن يتزوج؛ لأنها لن تقبل به متزوجًا و أنه سيضحي لأجل أطفاله وهذا ما حدث فعلا.

أما أنا فقد لفّ ذراعه حول رأسي وقال: إياك يوما أن تقيسي السعادة منوّطة بك فقط، فالسعادة في إسعاد الآخرين ولو كان الثمن تضحية موجعة.

لذلك يا من تقرأ حروفي اعلم أنك إن تركت شيئًا خالصًا لله سيعوضك، وإن كان لك نصيب فيه ستناله ولو بعد حين.

صبرًا صبرًا على ما نتمناه فلعلّ الله يدّخر لنا أجمل منه.

شؤم

كنت مع جدّي وجدتي –رحمهما ربي– حين أقبل علينا شاب اسمه باسل بصحبة أمه، ألقيا التحية وجلسا فسارعت جدتي لتجهيز الضيافة لهما...

بدأت أم باسل الحديث قائلة: يا أبا طاهر لقد تزوج باسل فتاة منذ ستة أشهر، وما إن سكنت معنا حتى تعاقب علينا الشرّ، حُرِقَ مستودعنا ثاني يوم زواجهما، وطالت النار أخته فتشوهت يدها، وبعد أسبوع ضُرِبَت أشجار الزيتون بدودة أتلفت حبّ الزيتون، ورغم عتبتها السيئة علينا إلا أن أب باسل تجاهل ربط هذه الأحداث بها من باب حُرْمة التطيّر، تغافلنا عن الأمر فما كان منها إلا أن غسلت صحون الطعام لنسمع فجأة انهيار رفوف المطبخ، وتهشم كل الأطباق الزجاجية والعجيب أنها لم تتأذ...

تنهدت الأم وبدأت بالبكاء، ليكمل باسل: يعلم الله يا أبا طاهر أن نفسي عافتها ولم أعد أطيقها؛ لأنني نفسيًّا بدأت أشعر بالشؤم ما أن أرى وجهها، فقاطعه جدّي قائلا: استغفر الله لا تقل ذلك، لتردّ أم باسل قائلة: لم أعد أطيق الوضع بعد أن كان أب باسل يضحك أثناء تناوله البطيخ لتعلق هي كالغراب قائلة:

(منوّر وجهك اليوم يا عمي) ما إن أنهت جملتها حتى تعرض أبو باسل لجلطة جعلته يرقد في المشفى منذ أسبوع! علق جدّي لا حول ولا قوة إلا بالله، سلامته شافاه الله...

ردّ باسل: الله يسلمك يا أبا طاهر، لكنّ المأساة تكللت عندما جرحت قدمي أثناء زيارتنا لأهلها، إذ اخترقت زجاجة حذائي أمام الشارع المحاذي لبيت أهلها، والتهب الجرح على نحو مخيف، لأصعق بأنني أعاني من مرض السكري وجرحي بحاجة لعناية حثيثة خوفًا من انتشار الغرغرينا فيه!

وقف جدّي وقال: (لا إله الا الله، والحمد لله الذي لا يُشكر على مكروه سواه)، وسأل: أين زوجتك يا باسل؟

قال: بعثتها إلى أهلها فلم أعد أطيقها، أنا عفتها نفسيًّا، ولست بقادر على تخيل وجودها في حياتي، ويعلمُ الله يا أبا طاهر لست أريد ظلمها لهذا حضرت لك لأستشيرك بعد أن عزمت على تطليقها!

سأل جدّي: هل تحمل في رحمها طفلًا لك! ردّ باسل: ليس بعد! ثم سأل جدّي: هل صارحتها بسبب نفورك منها؟

أجاب: نعم، فعلتُ وقلت لها: سأتزوج غيرك، فأقسمت أنني إن تزوجت غيرها لن تبقى زوجة لي وترغب في الطلاق.

فجأة ارتاحت ملامح جدّي بعد أن شعرت أنه منزعج وقال: العتبات كِعاب وعِتاب ونِصاب!

وقبل أن تسألوا سأفسر لكم، يحرُم التطيّر في ديننا، ولكن تغيير العتبة كناية أشار لها سيدنا إبراهيم عندما أوصى ابنه بتغيير عتبة بيته وقصد بها الزوجة، الكِعاب هنّ النساء والعِتاب هن البيوت والنِصاب هن الخيل في رأي أجدادنا وفي زماننا وسائل النقل! فتسمع أحدهم يقول: وجه هذه السيارة لم يكن عليّ خيرا!

وهذا ليس تطيّرا، قد يحدث أن لا تُقبل عليه دابته أو سيارته أو سُكناه أو زوجته بالخير، لأمر متعلق بالعين والحسد والطاقة السلبية، فَيُنْصَحُ بتغيير العتاب السيئة إن طالنا سوء منها، ولكن في حالة الزوجة لا نستطيع الجزم بربط تلك الأحداث بها، يبقى قضاء الله له الحمد عليه، لكنك هنا يا باسل قد عفتها، وهذا أمر آخر؛ لذلك إن أعدتها لبيتك مرة أخرى وبقيت لا تطيقها، فخيّرها بين تقبل زوجة أخرى أو تحريرها، فإن اختارت الطلاق لا إثم عليك، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ولكن امنحها فرصة أخرى ، لا تعلم وعسى أن تكرهوا شيئا وفيه خير كثير...

يا إلهي! شعر باسل براحة عجيبة، وقرر إعادة زوجته ومنحها فرصة أخرى ليبرأ من ذنبها مع تنبيه جدّي له بأن يكون جديّا في محاولته، وليس مجرد محاولة، بعد الضيافة غادرا وبقيت أتأمل جدّي و أنا أحمد الله عليه، وهمست له و أنا يا جدّي عتبة سيئة أم خيّرة؟ ابتسم وقال: اقتربي أنت الخير كله وسأخبرك سرّا نحن من نجعل من أعتابنا خيرًا إن تفاءلنا وأسقطنا السلبية فلا

يعني إن ألقيت تحية الصباح على أحدهم، ثم تعرضت لمصيبة أن وجه ذاك الشخص سبب مصيبتي! مع إثبات أن العين حقّ وعلينا التفريق بين أثر العين والتطيّر.

هل تعلمون ما العَجب؟! العَجَبُ بأن باسل جاء لجدّي بعد أسبوعين يهمس له بأن زوجته أثناء تجولها في أرضهم تعثرت بجرة من ذهب عثماني قديم كان سببًا في ثروة هذه العائلة بعد حين إذ أصبحوا من أغنى العائلات في منطقتنا، وتغيرت نظرة الجميع لتلك الزوجة التي لُقِبَت بوجه الرزق، ليُرزَق باسل منها بثلاثة توائم فأصبحت قصة هذه الزوجة مضرب مثل لشرح (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) مع ثبات حقيقة أن الشؤم في البيت والدابة والمرأة وارد، ويُنصَح بالتغيير إن استمر الشؤم مرتبطا، ولكن مع التمهل.

نكران المعروف

لقد جاء رجل شاكيًا لجدّي مع زوجته التي تزوجها بعمر السابعة عشرة، وسمح لها بإنهاء دراستها الجامعية، ثم أن تعمل بعد ذلك، بل وعلمها قيادة السيارة، واشترى لها سيارة رغم أنه لم ينه تعليمه الجامعي، لكنه امتلك عقل عالم وقلب ملاك في نظري فماذا فعلت؟

رفعت عليه قضية طلاق بحجة أنه لا يليق بمستواها العلمي وبدعم من تحريض أمها، كان محطمًا كسير الخاطر، نهض جدّي وقال له: علام الحزن؟! طلقها كما أرادت، فإنها والله جاحدة والجاحدات لا يصلحن زوجات! وسيعوضك الله من فضله بمن تقدر مستواك الأخلاقي الذي فاق كل الشهادات...

وهذا ما حدث بالفعل طلقها وتزوج بعد أشهر من فتاة تليق بخلقه، لكن هذه الحادثة أغضبت جدّي وقتها، وأذكر أنه رفض شرب الشاي لأنها أوجعته بل قال لي: فايدة كم أمقت ناكري المعروف والجاحدين والخائنين والمنافقين، وكم أحترم من يقدر المعروف!

شعرت لحظتها بأنه يقيس كلامه على ماض عاشه أو عاصره، فطلبت منه أن يشرح لي طمعا في حكاية من حكاياته! قال لي:

استدعي جدتك لأروي لكما حكاية حدثت معي أثناء خدمتي في الجيش، فسارعت لسحبها من يدها وأجلستها بجواره وقلت: أمتعنا...

قال: لقد تزوج صديق لي كان صاحب جاه ومال لأنه يملك قطعانا كثيرة من الماشية من فتاة اسمها سعاد فاتنة الجمال، مرّت علينا وقتها ظروف من الجفاف والقحط فتكت بالكثير من ماشيته، حتى صار فقيرًا معدوم الحال، حاول والد سعاد تطليقها منه لأنها فاتنة جدّا طمعًا في تزويجها من ثري آخر، لكنها رفضت وطلبت منه الرحيل والانتساب للجيش، وهكذا تعرفت عليه...

رأى سعاد تاجر ثري جدّا في تلك المنطقة، وحاول تطليقها من حسن ولأن حسن رفض، ضيّق عليه الخناق بسطوته ومعارفه، فكان يشكو لي الحال وهو يردد (ذنبي أن أحببت فاتنة وفاتنة أحبتني!)

أخذني لبيته ولم أكن قد رأيت سعاد قبلها، وتلك الليلة ألقت السلام علينا ووالله كانت فاتنة بحق. تدارك جدّي الموقف وقال: لكن ليس بقدر فتنة جدتك الغالية!

طلبت سعاد من زوجها طلبًا غريبًا وهو أن تستدعي التاجر لبيتها، فثار غضبًا.

قلت له: اهدأ دعها تكمل، فقالت: ليس في كلّ مرة سنواجه مشكلة نرحل ونهرب... أنت كنت لي خير الزوج في يسرك وعسرك، وأحببتني بصدق، و أنا لن أبدلك بكنوز العالم وإن أعجبتني!

لحظتها سألت نفسي ما الخير الذي فعله حسن في حياته ليُرزَق بزوجة صالحة مثلها! ودعوت الله أن يرزقني بمثلها، وهذا ما حدث يا أم طاهر رزقني ربي بك يا خيرة النساء.

دمعت عيون جدتي وأخذت نفسًا عميقًا، فقد شعرت بفيضان من المشاعر ما زلت أشعر به للآن. حبهما سرّ حروفي بعد فضل الله عليّ.

تابع جدّي: لقد طلبت سعاد مني ومن زوجها الاختباء تحرزًا في غرفة أخرى أثناء استقبالها للتاجر، إذ أرادت تأديبه بكيد النساء، و افق حسن بعد أن أقنعته، وبالفعل استدعت سعاد التاجر لبيتها فجاء كحيوان ملهوف على غريزة أعمته عن مرضاة ربه!

دخل البيت وأراد لمسها، فمنعته برقة وقالت له: ستنال مرادك بعد أن تأكل طعام عشائي فهذا شرطي! و افق وريقه تتسايل عليها كذئب مفترس، كنت أمسك حسن وأمنعه من التدخل إلّا إن استدعى الأمر تدخلنا، ثم غابت قليلا لتأتي له بطبق فيه بيض ملون!

قالت: تفضل، فسألها التاجر ما هذا؟ قالت بيض مسلوق ملون، وطلبت منه تقشير حمراء اللون، ثم الصفراء فالبنفسجية ... الخ.

ملّ من التقشير وقال: كلهن نفس الطعم، وفي النهاية بيض لا داعي لإنهاء تقشير البقية!

قالت: هل أنت متأكد أنهن نفس الطعم؟ أجاب نعم وتذوق المقشّر ليثبت صحة كلامه! عندها وقفت وقالت له: وكذلك كلّ النساء، وإن اختلفت قشرتهن الخارجية هنّ نفس الطعم.

بُهِرتُ وزوجها... أما التاجر فقد وقف مذهولًا.

قالت له: لا تجعل قشورًا تغويك عن طاعة الله، الشيطان زينني لك، وما إن تملكني حتى يصبح طعمي مبتذلا عندك، فتبحث عن أخرى.

اعلم يا أخي أن الجمال هو زوجة جميلة العقل والقلب؛ لأن مذاق الجسد واحد، و أتبعت قائلة: ستر الله على عِرضك وهداك ربي.

لقد بكى التاجر وخرج مستغفرًا وهو يدعو لها وله بالستر.

أما حسن فقد نسي وجودي معهما وسارع لاحتضان وتقبيل زوجته حتى أنني غادرت منزلهما ولم يشعرا من شغف أطاح بهما... لله درهما!

بعد أن أنهى جدّي قصته أيقنت ضرورة مغادرتي بهدوء لغرفتي، فنظرة جدّي لجدتي تلك اللحظة جعلتني أدرك أن الحبّ لا يشيخ أبدا.

هنا بدأت أكتب!

رغم حب جدّي العظيم لي، لكنه كان حازمًا في توبيخي إن تعلق الأمر بقاعدة سلامة اخترقتها بفعل فضولي ومشاكستي المعتادة، جرت العادة عندما تُقام ولائم الأفراح أن تُطْبخ في قدور ضخمة بعد تجهيز اللحم من الفجر لتأخذ وقتها الكافي في النضج؛ لأنهم يطبخونها على نار الحطب، فحدث أن تسللت لإحدى القدور فئران، ولم ينتبه لها أحد، تمت إضافة المرق على اللحم وبدأ بالغليان، كان هذا في باحة جيران جدّي الخلفية و أنا وجدّي في البستان نزرع الجزر، لنسمع صراخ زوجة جارنا...

تَجمّع الناس و أنا وجدّي منهم، كانت حاملًا وقد تاقت نفسها لبعض من اللحم فغرفت قطعة وبعد قضمها وبلعها، اكتشفت بأنها قضمت فأرًا وذيله في طبقها، كانت في حالة هستيرية وتتقيأ بشدة، البعض ضحك حدّ الجنون، وآخرون زادوا الطين بلّة بعبارات الاشمئزاز، كان الله في عونها كم شعرت بالشفقة عليها!

ظنّنا أن القصة عارض وستنساه، ولكنّ المسكينة فقدت الشهية تمامًا، وأصبحت تتقيأ بمجرد ذكر الطعام لها وعفّت نفسها عن الطعام والشراب، وتدهورت صحتها جدّا، ولأنها حامل فقد ساهم هذا الأمر في استهلاك طاقتها...

أصبحت طريحة الفراش، فاستنجد زوجها بجدّي قبل أخذها للمشفى، طلب جدّي مني الاستعداد؛ لأننا سنخرج للبريّة لإحضار نبتة اسمها (الرقطاء) ستساهم في تحسين حالتها، وإن لم تتحسن فهي بحاجة لعلاج نفسي أكثر من جسدّي، لتتجاوز شعور قضمها للفأر...

انطلقنا للبرية وقد حذرني كالمعتاد أن لا أعبث بالجحور أو أعشاش الدبابير، كنت مطيعة إلى أن رأيت أرنبًا بريّا، جدّي يجمع النبتة الغريبة بأوراقها الزنبقية المغطاة ببقع صفراء وهذا سبب اسمها على ما أعتقد...

اقتربت من الجحر، وأردت فقط مداعبة الأرنب ولم أنتبه لوجود عقرب عند قدميّ، وما هي إلا لحظات كالحلم وقمت بالصراخ من قدمي بعد أن لُدِغْتُ من العقرب، لدغته تُشبه صعقة كهربائية وناراً اشتعلت في قدمي، ركض جدّي نحوي وعندما عرف أنها لدغة صار ينظر حولي ليرى لون العقرب التي لدغتني كي يقدر خطورة السم، للأسف كانت عقربًا صفراء بذيل أحمر وهي من العقارب شديدة السُّمّية، جُنّ جنون جَدّي ورمقني بغضب؛ لأنني لم أنفذ أوامره، وقال لي عبارة لن أنساها ما حييت (إن حدث لك شيء سأفقد شهيتي في الحياة).

سارع لربط ساقي بقوة ليمنع انتشار السم، ثمّ أمرني بإغماض عيني، وقام بشقّ مكان اللدغة محاولًا عصر اللدغة لإخراج أكبر قدر ممكن من السّم مع الدم الذي ينزف إثر الشق، حملني بين

ذراعيه وعاد بي مسرعًا، بدأت أعاني من قشعريرة وحرارة، أُدخِلت المشفى أربعة أيام وقد نجوت بفضل الله، علمت بعدها بأن جدّي خلال هذه الفترة قد طبخ النبتة لتلك المرأة الحامل، وبأنه استخدم الحيلة معها، وقال لها (أنت حامل وهواجسك بالفأر قد تؤثر على جنينك فيأتي مشوّها، عليك تناول هذه النبتة، وتجاوز الأمر، وإن ما حدث معك هو مجرد دعابة ستثير ضحكك كلما تذكرتها).

وبالفعل تحسنت كثيرًا وعادت شهيتها، وأصبحت تحكي في القصة وكأنها تقول نكتة، أما أنا فقد عدت لبيت جدّي، ولكنه منعني من الحديث معه أو رؤيته مدة أسبوع عقابا لي على عدم توخي الحذر...

كثيرون يسألونني متى بدأت الكتابة، لقد بدأتها في ذاك الأسبوع الذي نُفيتُ فيه عن وطني (جدّي) لم أحتمل غضبه مني، وكلما حاولت طلب الصفح عنه باستجداء العطف منه بنظرات عيوني، أشاح بوجهه بعيدًا وقال: لا أريد رؤية عينيك كي لا أتراجع عن قراري، فما كان أمامي إلا قلمي، فقررت أن أكتب له رسالة اعتذار بعد ثلاثة أيام من تنفيذ عقابه عليّ، ما زلت أضحك تارة و أبكي تارة أخرى شوقًا له كلما تذكرت رسالتي له: (جدّي الحبيب، لدغة العقرب لم توجعني بقدرلدغة عقابك لي، سُمّ البعد عنك بدأ ينتشر في جسدي وسيقضي عليّ قبل انتهاء الأسبوع).

رميت الرسالة في حجره وهربت لغرفتي، ما هي إلا لحظات حتى دخل عليّ ودفء الكون في مقلتيه، فتح ذراعيه وقال: تعالي يا ماكرتي! وهل تظنين أنني سأحتمل أي نوع من السموم يفتك بك؟!)

قد نحبّ شخصا ما لا إراديا، يتسلل ويستوطن قلبنا دون إذن منّا، أنا بكامل إرادتي القلبية والعقلية عشقت جدّي وجعلت قلبي موطنا له، ببساطة لأنه يستحق وجدير بالحبّ، فحبه لو لم يكن قدري لكان دوما اختياري الأول والأخير، رحمك ربي يا وطني.

يُقال صاحِب الشرير واحذر شرّه ولا تصاحب الأحمق فأنت لا تعلم ما شرّه! كلام قاله جدّي –رحمه الله– بعد حادثة طريفة حدثت لزوج وزوجته... كان أبو صالح يسكن مدينتنا وهو رجل فقير الحال متزوج من امرأة بسيطة حد المبالغة أي تتصف بالحمق، لذلك من الضروري أن ينتقي الرجل زوجة صالحة لتكون أمّا صالحة لأبنائه، فلا تورثهم حمقًا ولا جهلًا؛ لأن الجهل بلاء عظيم، رغم ضيق عيش أبي صالح إلّا أنه كان رجلًا نبيهًا حسن التفكير ومع معاناته الشديدة مع تلك الزوجة الحمقاء إلا أنه سعى جاهدًا لتعليمها ولكن الحماقة أعيت من يداويها!

حدث أن أنجبت منه ثلاثة صبيان وفتاة، فضاق عليهم البيت ليقرر بناء بيت في أرض قد ورثها عن والده، ولضيق الحال كان يعمل هو وزوجته وصغاره في بناء البيت لتوفير أجرة العاملين، حدث أنه طُلِبَ لعمل في مدينة أخرى فأوصى زوجته

أن تتابع العمل في البيت والحفر مع صغاره لحين عودته فقد كانوا يحفرون أساسات البناء بأدوات بسيطة كالفأس.

ومن المعلوم عن بلاد الشام ومعظم البلاد في الوطن العربي بأنها أراض لحضارات عريقة سابقة وبأنها أراض للكنوز والآثار. لم يكن يعلم صالح بأن أرض والده زاخرة بجرار من الذهب العثماني الكفيل بجعله غنيّا حتى يوم مماته!

جرت العادة بأن الحكومات تستولي على الذهب والآثار حال اكتشافها باعتبارها ممتلكات عامة! مع أن للدين رأيا آخر في الموضوع، أترك لكم حرية البحث فيه، إلّا إن وجد أحد الذهب وقام ببيعه وتصريفه خفية.

وبعض الأذكياء يعقدون معاهدات مع الحكومة بأن له نصيبا مما يجد إن بادر لإخبار حكومته، وبذلك يحصل على نصيبه ويصرفه في العلن دون خوف من مسائلات قانونية... أمور لن أغوص فيها وسأعود بكم إلى أم صالح العزيزة التي وجدت جرّة من الذهب، فراحت تدور في الشوارع وتصرخ الحقونا في أرضنا قنابل! مما جعل الناس تجتمع لينتشر الخبر كالريح الصرصر فيصل للجهات الحكومية لتطوق الأرض! وتمنع الدخول لها ويصبح الناس يرددون كان الله في عونك يا أبا صالح على حمق زوجتك!

يعود أبو صالح ويسمع بما حدث ويرى أرضه مطوقة جاري البحث فيها واستخراج ما يزيد عن 50 جرّة من الذهب الخالص

هذا ما عُلِمَ لدينا وما خفي أعظم! وتنتشر الشائعات والأخبار التي لا يعلم بصحتها إلا الله! فلم يحتمل أبو صالح ما حدث فتعرض لسكتة قلبية تسببت في شلل يده اليسرى، و أثرت على نطقه!

والأدهى والأمر بأن زوجته أورثت حمقها لصغاره الذين عجزوا هم وأمهم عن العناية بأبيهم ليبقى على ناصية الطريق أمام بيته يعيش على الصدقات وعناية عابري السبيل وبعض من المعارف، أما زوجته فقد كان الجميع يخاف إدخالها بيوتهم لأنها لا تميّز ما يجب، إذ دخلت أحد البيوت فرأت صاحبة البيت ترتدي ثيابًا غير ساترة بشامة على ظهرها لتخرج واصفة المرأة لكل من يصادفها بالطريق، حتى عرف الرجال موضع الشامة منها فوصل الخبر لزوجها ليتفاقم الأمر ويصل حد طلاقه منها؛ لأنه لامها لكشفها جسدها أمام حمقاء مثلها!

لا أقول أن الحمقى ليسوا بشرًا وأن نتجنب التعامل معهم، بل أريد منكم فقط الحذر منهم؛ لأن حمقهم أعجزهم عن الصواب لذلك يؤذوننا دون قصد منهم!

عاملوهم كالأطفال بحذر وحرص وخوف، وأحسنوا اختيار الشريك.

طيف

الحياة كأمواج البحر قد ترمينا على شاطئ الأمان وقد تغرقنا في غياهب البحر، ما زلت أشعر بغصة على كلّ محب يعيش بجسده مع شريك لا يحبه وروحه معلقة بطيف آخر، ذاك اليوم اقتربت جدّتي من جدّي، وهمست له بأن امرأة ما تريد محادثته، أخبر جدّي بأن تأتيه وعندما أقبلت كانت فتاة عشرينية جميلة بوجه شاحب وعيون دامية، حضرت الجارة تنادي على جدّتي لتذهب إليها فكان هذا من حُسْن حظي لأبقى مع جدّي كمحرم وبالتالي أسمع قصتها، ولو لم تأت الجارة لأخرجوني وبقيت جدّتي!

نظرت لي وكأنها توجست من وجودي، فقال لها جدّي: هي لا تسمع ولا ترى ولا تنطق إلا ما آمرها به، لقد أصاب فقد علمني أن أدفن ما أراه وأسمعه، و أتعلم منه فقط، دفنت أسراري معه لسنوات وها أنا أقدمها لكم لنشر الفائدة والحكمة دون التطرق لخصوصيات أحد، حتى إن قرأ أحد ما تلك الذكريات وعرف أنه المقصود سيبتسم لأنه سبب في نشر النصح والخير ولن يعلم أحد من هو...

بدأت بالبكاء وقالت: زوجي مريض نفسي أو مجنون أو مسحور وقد تعبت معه، هو لا يشعر بي ولا يدرك وجودي، يحادث نفسه

ويتأمل زوايا البيت وكأنه يرى شيئا لا أراه، أعيش معه على قيد الحرمان مجرد مدبرة لشؤون المنزل! لا أريد الطلاق منه لقد أحببته رغم كل ما يفعله بي، تعجبت وقتها كيف لنا أن نحب من لا يحبنا وتذكرت مثلا شعبيّا (القط بحب خنّاقَهُ).

سألها جدّي سؤالا واحدا فقط: من هو زوجك؟

أجابته ثم قال لها: عودي لبيتك راضية مرضية بإذن الله إلى أن أعرف علته.

عندما غادرت قلت لجدّي ماذا ستفعل؟ ابتسم وقال: سنحلل بطل الحكاية نفسيّا!

لم أفهم المغزى تمامًا إلا بعد حين، لقد جمع معلومات عن الزوج بل، وتقصد رؤيته ومراقبته من بعيد دون اختراق لخصوصيته، لقد كان ماضي هذا الزوج مؤلمًا جدّا، إذ أحبّ فتاة حد الجنون وقد تزوج بها ليشاء القدر أثناء تواجده في العمل بعد شهر فقط من زواجهما أن تصعق الكهرباء جسدها وهي تغسل غير منتبهة لعرّي سلك الغسالة الذي لامس الماء في أرض الحمام، عاد ليجدها جثة هامدة، لقد عانى واعتزل الناس ثلاث سنوات، حتى أجبره أهله على الزواج من أخرى لعلّ وعسى أن يعود على قيد الحياة.

هو ليس مجنونًا هو فقط عاشق ما زال يمارس طقوس عشقه مع طيف حبيبته الميتة، ليس ذنب زوجته ولا ذنبه، إنّها مشيئة الله، لقد تزوج في نفس بيت زوجته السابقة وهنا الخطأ

الأكبر، فا زالت ذكريات تجمعه مع زوجته الميتة تغزوه كلّ ليلة في كلّ زوايا البيت، أبهرني تحليل جدّي، وتعلمت من تلك اللحظة أن أبرر أيّ فعل سيء لصاحبه، فأنا لا أعلم أيّ ماض قاده لذلك الفعل ولكن ضمن قيود بلا شك!

لقد استدعى جدّي هذا الشاب، وحادثه بحديث لم أسمعه ولكنني رأيت شابا دخل لجدّي بروح ميتة، وخرج من عنده بروح حيّة وعيون كلها أمل.

سألت جدّي: ماذا حدثته؟

قال لي: طلبت منه أن يرى زوجته بعين قلبه لأنها تحبه وأن يعطيها الفرصة لتسكن قلبه، طلبت منه أن يرحل إلى بيت آخر، وهمست له بأن زوجته هذه تحبه جدّا وجدّا وجدّا، ضحكت كثيرًا لأنني أعلم كم نحن ضعفاء! فهو بمجرد شعوره بحبها له انتشى فرحًا، وسيبادلها بالمثل، وما يدرينا لربما تنسيه ذاك الطيف إلى الأبد!

كلّ ما أعلمه بأنني كنت في الحديقة العامة مع جدّي يوما ليهمس لي: انظري لهما، لقد عرفتهما، ولكن بنور حب مشرق من عيونهما، كانا هما عاشق الطيف وعاشقة زوجها، ما أجملهما!

أمسك جدّي يدي حينها وقال لي: سأموت يوما يا فايدة، ولكن أطيافهم ستدعو لي.

صرخت: لا تقل هذا!

قال: الموت حقّ غاليتي فقط كوني كأطيافهم ولا تنسيني من دعائك يومًا.

كيف أنساك يا نورعينيَّ...

رحمك ربي وجدّتي، وأسكنكما فسيح جنانه مغفور لكما بإذنه.

سحر الأرواح

لن نختلف أبدا على أنّ السحر حرام لما فيه من أذية وزيف، ولكنّ سحر الأرواح حلال لا محال.

عاجزة عن تعريفه، لكنني سأصفه لكم، كان جدّي –رحمه الله– ساحر أرواح بجدارة.

كنتُ إن وقعت فخُدشتُ أو جُرِحتُ نفخة من أنفاسه على جرحي كفيلة بجعل الوجع يغادرني، أنفاسه بلسم.

إن شعرت بريبة أو خوف فنظرة عيناه كفيلة بتبديد خوفي، فيهما دفء وأمان الكون، حضنه وطن.

لقد علمني بعضا من سحره، وهو مخاطبة الكائنات نباتات كانت أم طيورًا أم حيوانات.

أذكر مرة أن صديقًا له حضر يشكو له من حصان جامح لم يفلح أحد في ترويضه، فطلب من جدّي ممارسة سحره في ترويض هذه الفرس الجامحة، ذهبت بصحبته وما أن اقتربنا ، لم أخف منها أبدا سحرتني نظرة عينيها البرّاقة، صرخ صديق جدّي أن أبتعد عنها كي لا تؤذيني، أما جدّي فقد ناداني وأعطاني قطعا من السكر وجزرة وقال: انطلقي ولا تخافي.

اقتربت منها رويدًا رويدًا وفي يدي السكر أقدمه لها، بقيت تنظر لي دون أن تبادر للاقتراب مني، ولكن سرعان ما أتت ولعقت السكر من يدي، رباه ما أروعه من شعور! ثم أطعمتها الجزرة ليقترب جدّي ويركبني فوقها، وهو ممسك باللجام، كلّ ما كانت تريده تلك الفرس دفء وأمان وهذا ما علمه جدّي لصاحبها. كنت أسترق اللحظات وأذهب لزيارتها بين الحين والآخر.

نقاء القلوب ودفء العيون ورقة الأسلوب وخفة الظل أبواب تدخلنا عالم سحر الأرواح.

كونوا سحرة أرواح و انشروا الفرح والطاقة الإيجابية أينما حللتم.

قد تتبع إحداهن وصفة لطبخة ما بحذافيرها وتفشل معها فشلًا ذريعًا وتعجب أين أخطأت! وقد تأتي إحداهن بخفة ظلها فتدخل المطبخ وتبدأ بدمج المكونات دون مقادير لتتمازج مكونة أشهى طبق على الإطلاق وبفترة زمنية قياسية، الفرق أن الأولى لا تتقن سحر الأرواح.

قد يعجز رجل رغم حسنه ومقوماته المغرية عن كسب قلب امرأة ما، فيأتي شاب بسيط ويكسب قلبها ببساطة. السرّ في روحك، ابحث داخلك واسأل نفسك، هل أنت ساحر أرواح أم منفرّ أرواح؟!

إنّ سحر الأرواح يجعلك إنسانا متصالحًا مع نفسك ومع كل شيء ووالله يجعلك تنادي الطير فيأتيك دون خوف ليأكل كسرة

خبز تعطيها له في يدك، بل يجعلك تحادث نبتة أوشكت على الذبول، فتلمسها بأناملك وترعاها من جديد لتعود مزهرة.

بعض الأطباء ماهرون جدّا في عملهم، لكنهم يفتقدون لسحر الروح بسبب كونهم عمليين جدّا، وأعظم الأطباء طبيب عالجك بعلمه وبروحه!

كُن حبيبا ساحرًا لروح أحبتك ممتصا لغضبهم وأوجاعهم سببا في ابتسامتهم وتفاؤلهم.

كوني حبيبة تنثرين الفرح أينما حللت كفراشة بهية الألوان ولا تكوني للنكد بيرقا.

السحر هو أن تبتسم بسببي و أنت لا تراني ولا تعرفني.

السحر هو أن تنشر الخير.

السحر هو أن تعالج قلوبا كسيرة.

السحر هو أن تغيّر حياة أحدهم للأفضل.

السحر هو الحب.

نعم، حب كل شيء وأن ترى الجمال حتى في الأشواك.

كونوا سحرة أرواح ليعمر كوننا خيرًا.

أرجوكم كونوا.

أن لا تعلم خير من أن تعلم

هل تعلمون؟! أحبّ قاعدة علمني إيّاها جدّي –رحمه الله– وهي (أن لا تعلم خير من أن تعلم) ولو عدنا لوجدنا لهذه القاعدة إشارة في كتابه حيث قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) المائدة/ 101.

حتى في حالات المرض التي لا يُرجى الشفاء منها عندما يصل المرض مرحلة ميؤوسا منها طبيّا، لا أفضل أن يعلم المريض طبيعة مرضه؛ لأن الإنسان خُلِق ضعيفًا ولا يقدر على الصبر إلا قليل من الناس وإلّا لما كان أجر الصابرين عظيما.

أذكر أن لجدّي –رحمه الله– صديق قويّ البنية طويلٌ يهابه الكثيرون لقوته البدنية وقوة شخصيته أيضا، وكان يساعد ضعاف الحيلة في نيل حقوقهم من الأقوياء مما شكّل له عداوات كثيرة من بعض الحيتان البشرية التي لا تخاف الله في حقوق المستضعفين.

رغم قوته البدنية إلّا أنه كان قليل الأكل ويشبع بسرعة وفي يوم مرّ بالقرب من بيت جدّي –رحمه الله– ورفع يده للتحية، ثم سقط مغشيّا عليه فجأة.

هرع الجميع لرؤية ما حدث له، و اقترب جدّي منه وأشار لي أن لا أقترب لتزاحم الرجال، ولأني فتاة لا يتوجب أن أرى ذلك.

وضع جدّي يده على عنقه فعلم أنه مات –رحمه الله– ولكنّ أهله والبحث الجنائي عندما تأكدوا من أنّ سبب الوفاة مجهول وليس جلطة قلبية كما توقعوا، طالبوا بتحليل جثته حتى يُعرَف السبب، فهو لم يكن يعاني من أي مرض، وظنوا أنّ أحد الحيتان وضع له السّمّ بطريقة ما؛ لذلك تم تحليل جثته بالفعل ويا لهول النتيجة...

قد لا يصدق البعض ولكنّ الأمر بقدر ما أبهر الأطباء شاع ذاك الوقت، وأصبح الجميع يتحدث به، لقد فتحوا أحشاءه فلم يجدوا له من الأمعاء إلا أقلّ من الربع حتى معدته فتكت بها الخلايا السرطانية بنحو عجيب، وتعجب الأطباء من بقائه حيّا هذا الوقت دون ألم أو وجع، وكيف كان قادرًا على الإخراج!

(لا إله إلا الله)... كان السرطان ذاك المرض الصامت يفتك به منذ زمن، ولكنه لا يعلم ولو عَلِمَ لما مات قويّا، لقد عاش قويّا ومات قويّا، تلك حروف جدّي رحمهما الله.

حقيقة تخيّلوا معي لو أن هذا الرجل عَلِمَ أنه مصاب بالسرطان قبيل موته، هل سيبقى قويّ الشخصية ويمارس حياته كما كان، لا وألف لا...

علم يقينا أن تطبيق هذا الأمر في كل الحالات ليس صحيحا ولكن صدقوني أن لا نعلم خير من أن نعلم.

عزيزتي الزوجة إن كنت تشكين في خيانة زوجك لك لا تبحثي وراء الأمر ولا تحققي فيه، وحاولي بذل طاقتك في التحسين من نفسك أكثر على الأقل عندما يظنك لا تعلمين، يحرص على مشاعرك أكثر، ولكن إن عرف أنك علمت أنه خائن يصبح وقحًا أكثر وغير مبال، أو ستدخلان في سبات عدم الثقة والبرود في علاقتكما مما يؤدي إلى انهيارها تماما.

هل تعلمون؟! التجاهل ليس أمرًا يسيرًا بل يحتاج لقوة، فكونوا أقوياء وتجاهلوا ما لا يجب.

لا تبحثوا وراء أمور إن بدت لكم تسؤكم.

ابحثوا عن علوم نرتقي بها لا أخبار ننهدم بها.

لا تبالغوا في التصريح فكثيره تجريح.

انصحوا بأسلوب لَبِق ولا تكونوا كشيء ثقيل دَبِق.

استقبلي زوجك بوجه باسم، وأعطه حقوقه ولا تبادريه بخبر لظهر قاسم.

من السهل أن أخبر طلابي أن نصفهم أغبياء، ومن السهل أن أقول لهم أيضا نصفكم، فأذكياء كلا العبارتين تحمل ذات الحقيقة، ولكن فكّروا في أثر كل واحدة عليهم.

اجعلوا ألسنتكم للخير عنوانًا ولا تكونوا غربانًا تنعق خرابًا.

فوالله ما نحن إلا بشر ضعاف تهدمنا حروف وتبنينا كلمات.

حماقات

أراقب ابن أخي وهو يلتهم شاشة الآيباد بعنق منحن وظهر متقوس و أنامل ستتقوس يوما ما إن بقي يتنقل فيها هنا وهناك على سطح أملس أصمّ لن يعلمه يوما لذة الطفولة، اختنقت وأردت خطفه معي لنعود إلى ثلاثة عشر عاما قد مضت على أجمل طفولة عشتها، لقد خطفت الآيباد منه، واستفززته لملاحقتي في أرجاء البيت...

أردت أن أراه يضحك، يركض كما كنت أنا، أرجوكم لا تقتلوا طفولة صغاركم بتلك الأجهزة الصماء بحجة انشغالكم عنهم، أو بحجة تعلمهم، فإنهم وربي لن يتعلموا ما لم يحسوا ويجربوا ويمارسوا.

أذكر عندما كنت في العاشرة من عمري أنني حضرت فلما للمحقق (شارلوك هولمز) وفتنت بعدسته وغليونه، حتى أنني صممت على امتلاك عدسة مثله، كنت أتتبع فيها النمل و أتأمل فيها لحاء الأشجار وأحفظ من خلالها مسامات جلد جدّي، حتى شعرات ذقنه رأيتها بها لدرجة أنه قال لي مرّة ألن تكفي عن إزعاجي أيتها النحلة؟! كان غير مدخن أبدًا لكنه يمتلك غليونًا جاءه هدية من ألمانيا...

صممت على أن أراه يدخن فيه لأعرف كيف يعمل؟! قال لي: فايدة ارحميني من اكتشافاتك! لكنني كنت عنيدة لدرجة جعلتني أضع أوراق الزعتر المجفف مع أوراق الورد، وأشعل النار فيها ليدخنه جدّي، عندما رآني أفعل ذلك، لم يقاوم فدخن الزعتر والدموع تنزل من عينيه ضحكًا، كنت عاشقة للمعرفة والاستكشاف وتسلق الأشجار...

ولكنني أحيانا أصل حدّا من الاستكشاف يسبب الكوارث، ففي أحد مشاهد فلم المحقق هولمز رأيته ينثر مادة بيضاء كالبودرة ليرى آثار أقدام المجرم ويتتبعها...

أردت تطبيق ذلك على نحو عملي وانتظرت الفرصة المناسبة حيث دعيت أنا وجدّي وجدتي –رحمهما ربي– لزيارة أحد الأقارب...

وكانت قطة جدّتي تعبث بغرفتي دائما، ولا أستطيع معاقبتها لسببين؛ لأن جدتي تحبها، ولأنني لا أستطيع لمس القطط أبدًا، فلو لمستها لكنت بالتأكيد عاقبتها، أعتقد أنني كنت سأزينها بمساحيق التجميل عقابًا لها وأجعلها كالمهرج، لذلك قررت أن أتتبع خطواتها، ومن أين تدخل لغرفتي رغم إغلاقي للباب والنافذة...

لم أمتلك المادة البيضاء، فأخذت دقيق القمح الأبيض، وانتظرت خروج جدّي وجدّتي، ونثرت الدقيق في كلّ الغرفة، ثم التحقت بهما وكأنّ شيئا لم يحدث!

انتهت الزيارة وكنت في شوق شديد لاكتشاف المجرمة و إثبات الجرم عليها، فتحت جدتي الباب لترى فراش صالتها المخملي الخمري ملطخًا بالدقيق بسبب القطة، تعجبت من أين جاءت هذه المادة البيضاء، بقيت صامتة، وسارعت لغرفتي لأجد آثار أقدامها بالقرب من مدخنة التدفئة، إذًا؛ كانت تتسلل لغرفتي من المدخنة، حققت اكتشافًا جعلني أركض لإحضار جدّي وإخباره بما فعلته!

طبعا جدّتي عندما رأت غرفتي أخذت نفسا عميقا وجلست من هول الصدمة، أما جدّي فقد انفجر ضاحكًا، ونتيجة لضحكه وفعلتي تمت معاقبتنا نحن الاثنين من قبل السلطات العليا ألا وهي جدتي..

كان أشهى عقاب على الإطلاق، تمرغت أنا وجدّي بالدقيق وكأننا عاملا منجم! كنت أكنسه فيتطاير على شعري وحاجبيّ، ما إن فرغت حتى ذهبت لأعتذر من جدتي على فعلتي، فاستقبلتني بابتسامتها الدافئة، وكانت تصنع الفوشار لنا، وهي تغطيه كي لا يتطاير، اقتربت وقلت لها ماذا لو فتحنا غطاء القدر عنه وتركناه يتطاير؟! قالت ستتطايرين معه بعقاب أشد وطأة، طبعا التزمت الهدوء مؤقتًا، لكن ما زلت أخضع حبات الذرة لاختباراتي بين الحين والآخر...

نعم، قد نرتكب الحماقات ولكننا منها نتعلم... نعم، قد نفكك الألعاب ولكننا منها نستكشف... نعم، قد يزعجكم

فضول أطفالكم، ولكن ثقوا بأن الطفل يجب أن يكون فضوليّا كثير الأسئلة لأنه لو لم يكن، فتلك مصيبة!

عبثي بالدهان والألوان جعلني رسامة، تفكيكي للألعاب جعلني حرفيّة، أتوق لصنع أي شيء مما تظنونه لا شيء، ملاحقتي للحشرات بعدستي جعلني أقدر قيمة كل كائن مهما كان صغيرًا وأرى عظمة ربي فيه، توقي لفعل الشيء في حالة عدم توفر أدواته جعلني أصنع أدواتي الخاصة، فما زلت أذكر كيف صنعت حذاء للمشي على الثلج من مضارب التنس، رغبتي في القصّ جعلتني أرغب في الخياطة وتحويل قصاصاتي القماشية لأشكال جديدة؛ منها غطاء فراشي المكون من مربعات قماشية جمعتها معًا، لعبي في التراب جعلني أعشق الأرض والزراعة وأميل للبساطة، عبثي بالماء جعلني أدرك بأنه من أعظم نعم الله علينا...

ببساطة تلذذي بطفولتي جعلني أقدس كل تفاصيل الحياة وأحترم الناس والكائنات، وزادني ذكاء وسرعة بديهة...

الآن اسألوا أنفسكم كيف تريدون لأطفالكم أن يكونوا بعد خمسة عشر عاما، عبيدا لأجهزة ستتسبب في هرمهم وهم شباب أم عبيدًا لله يتفكرون في كونه!

الحب مو اقف!

في زمن كَثُرَت فيه غيوم الضلال والتضليل حتى أصبح البعض منا فاقدًا للثقة في كل من حوله تبقى هنالك فوق قمم الجبال شمس التفاؤل وبين سفوح الجبال زهور الخير...

أميل للمثالية في كل شيء ليس لأنني مثالية، ولكنني أرى الكون بعين الخير كما عودني جدّي، فوق دالية العنب كنت متسلقة أقطف العنب الذي عصي قطفه على جدّي لارتفاعه، يأتي رجل على كرسي متحرك ويصرخ (انزلي... انزلي) صراخه دبّ الرعب في فرائصي حتى جدّي ارتعب وهرع ليتلقفني بعد أن أمرني بالنزول، اقترب الرجل معتذرًا وقال: اعذرني أبا طاهر لكنني تخيلت نفسي عندما وقعت من فوق سطح بيتنا مما تسبب بكوني مقعدًا الآن، ولم أتصور أن تلقى حفيدتك مصيرًا أسودًا كمصيري، و أنا أراها معلقة بين الأرض والسماء...

لأول مرة شعرت بقلق في عيون جدّي حتى أنه منعني من تسلق الدالية مرة أخرى، كان الرجل حزينًا مثقلًا بالهموم وحبيس مقعد أصم، جماد وإن تحرّك!

استأذنت جدّي عندما شعرت برغبة سالم في محادثة جدّي، وذهبت لغسل العنب لهما، وفي طريق عودتي لتقديمه لهما رأيت

سالمًا يبكي، نظر لي جدّي من بعيد نظرة تأمرني بالرجوع، فلا وقت للعنب الآن كما أنه ليس من اليسير على رجل أن يرى أحد دموعه.

عدت وغصة دموعه في قلبي مع فضول عارم لمعرفة سببها! لقد طالت جلستهما، فما كان مني إلا التجول بين الأشجار وكالعادة العبث بما لا يعنيني كعشّ الدبابير، لُدغت مرة في يدي ومرة في جبيني، كم بكيت صامتة خوفًا من إزعاج جدّي ومقاطعة حديثه مع الرجل، لن أنسى جلَدي وقوتي تلك اللحظة مع أنّ اللدغة مؤلمة جدّا، ما إن غادر الرجل حتى ركضت لجدي باكية وعندما رأى جبيني انفجر ضاحكًا وقال: دبور! ألم تسلم منك الدبابير؟!

كان جبيني متورمًا فسارع لوضع مكعبات الثلج بالثوم على مكان اللدغات، ورغم شعوري بالألم سألته: لماذا كان سالم يبكي؟!

قال: هل سيتوقف ألمك إن أخبرتك؟

ابتسمت بمكر وأجبته: بل سيختفي.

ابتسم وقال: لقد طلق سالم زوجته بعد ستة أشهر من عجزه عن المشي لأنه يرى أنها يجب أن تفكر بمستقبلها مع رجل معافى لا عاجز مثله، ولأنه لم يحتمل شعور العجز أمامها وهو الذي تزوجها بعد علاقة حب جمعتهما...

استغربت وسرحت وسألت نفسي وأسألكم؟! أليس من الأجدر أن يتعرى ضعفنا، ويظهر عجزنا لمن نحبهم، فهم سترنا وغطاؤنا وليس للأغراب؟!

لا حاجة لي بحبيب لا يقبلني بكل أوضاعي! لا عيب أن يبكي الرجل في حجر محبوبته، لن ينقص ذلك من شأنه شيئا، إذ يفترض أنه مع نفسه وروحه!

تابع جدّي، لقد بكى؛ لأنها رحبّت بالطلاق، ولم تتحمل عجزه ليكتشف أنه لم يعرف حبيبته وشريكته حقّ المعرفة إلا بعد أن مرّ في ضائقة!

تبا لمن يدّعون الحب ولا يتقنونه! الحبّ سلوك وخلق رفيع يجعلنا نضحي ونهتم ونتنازل، سألت جدّي ماذا ستفعل مع سالم؟! فقال: سأزوجه من فتاة نقية السريرة...

وهذا ما حدث بعد شهر من البحث زوّج جدّي سالمًا من أروى وهي فتاة خلوقة صبورة من أسرة مستورة الحال، لم تُجْبَر على الزواج منه بل قالت لجدّي: إني أبتغي مرضاة الله وجنته فيه!

تزوجا وحضرت زفافهما ورأيت في عينيه أملا أشرق من قلب أروى ودفء عينيها، أنجبت منه ثلاثة أطفال وبقي مقعدا طوال عمره، ولكنني كنت أراه يمشي بقدمي أروى، حتى أنه ألقى التحية على جدّي مرة ودعا له بالجنة، ولن أنسى قوله: (الحبّ تثبته الأيام والعثرات ولن يكون في يوم من الأيام مجرد كلام معسول أو

أشعار، هو مو اقف و أنا أشهد الله أني أحب أروى وأحبك يا أبا طاهر بكل جوارحي).

نعم الحب موقف!

رحمك الله يا جدّي...

ارقد بسلام تكتنفك دعو اتي ودعوات كل قلب أعطيته مما أعطاك ربي..

يا عيني على الحب!

قد نسأل أنفسنا لماذا يوقع الله حبّ أحد ما في قلبي أو قلبك، ويشاء فرقتنا بعدها فلا يتم الاجتماع لعدة أسباب أبرزها الواقع بجبروت عاداته وتقاليده، أو سوء فهم يفرق هذا عن ذاك، أو اختلاف جنسيات وحدود تبعدنا! الأسباب عديدة جدّا والنتيجة واحدة وهي الفراق، في هذه الحالة الأوجب بالعبد الرضا بحكم الله وطلب العوض منه، ومواصلة الدعاء لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا، أو لعله خير لنا ذاك الفراق رغم مذاقه المرّ الموجع، ولكن لا يخفى على أحد منا أن كلا الشتيتين قد كسب كل منهما قلبا يدعو للآخر ليوم الممات.

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ظنّا كل الظنّ أن لا تلاقيا.

لقد أحبّ أحد أقربائي فتاة من عشيرة أخرى، حتى أوشك على فقدان عافيته بعد أن رفضه أهلها بحجة أن أبناء عشيرتها هم أجدر بها، وأنهم لا يغربوا بناتهم، لقد بكى على كتف جدّي يرجوه أن يجد له حلّا، ما زلت أسمع أنين قلبه، بعث جدّي مرسالًا لأهلها بأنه وحشد من الرجال قادمون لخطبتها، ليأتي جواب والدها بأنه قد تم عقد قرانها على أحد أقاربها منذ يومين ولا حاجة لقدوم جدّي ومن معه!

عندما سمع أيمن خبر خطبتها جنّ وصرخ ومزق قميصه وضرب رأسه بجذع شجرة حتى سال دمه، كان والده يشتمه ويوبخه بأنه ليس رجلًا وأمه تبكي وتدعو على من أوصله لهذا الحال، أما جدّي فقد أمر الجميع بالرحيل، وأخبرهم بأن أيمن سيبقى برفقته لحين تحسن حاله، أشار لي أن أصحبه للمضافة كي يرتاح، وفي هذه الأثناء وبخ والده وقال له: نحن لا نملك قلوبنا، والحب رزق يوزع على القلوب فلا تكلفوه ما لا طاقة له به.

استلقى أيمن ورفض الأكل أو الشرب ذاك اليوم الذي تركه فيه جدّي لوحده، وفي اليوم التالي دخل جدّي عليه فوجده مرميّا على الأرض كورقة خريف، فاقترب منه واحتضنه وقال له: هل تحبها لهذا الحد؟

اشتد بكاؤه وقال: لا أتخيل حياتي دونها ولن أطيق امرأة بعدها، ابتسم جدّي وردّ عليه: ولكن الأيام كفيلة بأن تنسيك إياها، نهض من حضن جدّي، و أقسم بأنه لن ينساها حتى مماته...

قال له جدّي: أعد هذا الدعاء من بعدي (اللهم دبرلي فإني لا أحسن التدبير، وإن كان في قربها خيرًا فاجمعني بها ولو بعد حين، وإن كان في قربها شر فباعد بيننا، وآت كل واحد منا من فضلك يا أرحم الراحمين).

يا إلهي ما إن أنهى أيمن هذه العبارة حتى هدأ وطلب مني ماء. سارعت لإحضار الماء والشراب والطعام له.

طلب منه جدّي أن يستغفر ويتوضأ، ثم يصلي ويكرر الدعاء وهو متيقن بأن ما قدره الله الخير وإن لم يعجبنا.

بالفعل رفض أيمن الزواج وأكمل دراساته العليا، وكان دائم الدعاء لها ويذكرها بالخير ويتتبع أخبارها، لقد كان أيمن بالنسبة لي مثالًا عظيما على قلب عاشق مخلص وما زال، مرّت أربعة أعوام على زواجها ولم تنجب من زوجها، فقرر الزواج بأخرى لأجل الإنجاب، لكنها رفضت البقاء على ذمته واختارت الطلاق رغمًا عن الكل...

كنت في السادسة عشرة من عمري آنذاك، طرق أيمن الباب وكان في أبهج حلّة وسأل أين جدّنا؟ قلت له: تحت شجرة الزيتون هو وجدّتي، اذهب لهما، وسآتي لكم بالشاي...

صرخ في وجهي وقال: بل ستأتين معي لا أريد شايّا، ذهبنا لجدّنا الذي احتضن أيمن بمحبة غامرة، ثم قبل يد جدتي ورأسها، وأعلن لقد تحررت عبير من زوجها، و انتظرت إخباركما لحين انتهاء عدتها، أريدها يا جدّي، أريدها!

كم ضحكت وبكيت وقتها، أمسك يدّ جدّي وقال: هيا اخطبها لي.

أبي مو افق ولكنّ أمي قاطبة الحاجبين، ر افضة خطبتي لها بحجة كيف لي أن أرتبط بفتاة سبق لها الزواج، و أنا لم يسبق لي، علاوة على أنها لم تنجب!

ابتسم جدّي وقال: لا تقلق سنغسل دماغ أمك ولكن دعنا نخبر أهلها بقدومنا، قال: أخبرتهم هي! نظر جدّي له وقال: أخبرتهم هي! وهل تتواصلان؟ ردّ: وكيف لعاشقين يا جدّي أن لا يتواصلا بعد تحريرهما، وأشهد الله أننا طوال زواجها لم نتواصل أبدا.

ابتسم جدّي وقال: لهذا وفقكما ربي، وجمعكما من جديد.

تمت خطبة أيمن على عبير وبعد أسبوع فقط تزوجا، ولم يطق أيمن أن تطول خطبتهما، وغسل جدّي دماغ أم أيمن بالإقناع وضرب لها مثلا ماذا لو أن ابنتها هي من انفصلت ولم تنجب أهذا يُعيبها؟!

الطريف جدّا في الأمر أن عبير حملت من أيمن بعد مرور شهر واحد فقط على زواجهما، وكأن الله أوصد باب رحمها عن غيره! فسبحان الله!

الحب يا جماعة يصنع المعجزات!

لكن تعالوا لأقول لكم، ليس بالضرورة اجتماع الشتيتين بعد الفراق ، يبقى الله أعلم بوجوب ذلك من عدمه، ولله في خلقه شؤون!

يا عيني على الحب!

قانون الجذب

هل تؤمنون بقانون الجذب؟ هو في حقيقته حُسن الظن بالله من تفاؤل أو قنوط من رحمته وتشاؤم! يعتمد الأمر أي طريق فيهما تختار، ولكنني تربيت على الجانب الإيجابي في أكناف جدّ حكيم وجدّة حنونة –رحمهما ربي– في الأعياد نخرج للحدائق والأماكن العامة، وقد رافقت جدّي وابن خالي البالغ من العمر آنذاك تسعة وعشرين عاما، كان رافضا للزواج من مبدأ أن المجد لقلبه حرّا دون قيود أنثى.

جلسنا في الحديقة قليلا، في انتظار طلبية من الحلوى كان جدّي قد وصى عليها لسهرة عيد تجمع كل الأرحام والأقارب، كنت كالعادة فضولية وأرى الجمال في كل شيء، فصادف مرور فتاة جذبني لون فستانها الأسود المزين بمجرة فضائية؛ راق لي وسرحت في ذيله الفضفاض، ولم أكن بعد قد تمعنت في ملامحها...

ناديتها مجرّة مجرّة، فستانك جميل جدا، سمعني ابن خالي ووبخني بأنه من غير اللائق أن أناديها بهذا الاسم، توقفت والتفت نحونا وهي تبتسم وقالت: لا عليك دعها تناديني بما تريده، فقد أحببت اسمي الجديد.

حقيقة لو نظر أحد لي ولابن خالي محمد تلك اللحظة لوصفنا بالأحمقين بفمين مفتوحين وعيون مذهولة لجمالها! جلّ من سوّاها!

راقية عذبة رقيقة، نظرت لمحمد الذي اخترق سهم الحبّ قلبه من النظرة الأولى.

غادرت ولم يتدارك محمد الموقف ليعرف من هي؟ أو أين تسكن؟

غابت وسط الحشود وهو مذهول كتمثال أصم، وصلت طلبيتنا، هيا يا محمد، أناديه أنا وجدّي، ومحمد تائه في غياهب المجرّة، طوال الطريق وهو يضرب الكفّ بالكفّ متحسرا بأنه لم يسألها عن اسمها أو عائلتها، حدّث جدّي بالأمر وقال له: جدّي سأجنّ إن لم ألقها مرة أخرى، فقد اخترقت قلبي.

ربتّ جدّي على كتفه بقوة وقال له: هل أحببتها، وتملكتك وترغب في العثور عليها مرّة أخرى؟

صرخ: أي والله! أي والله!

ضحكت أنا وبدأت أغني (جرّة جرّة، راح اكسرها، إذا محمد وجد المجرّة) لن أنسى ردّ جدّي عليه، قال له: ستأتيك إن طلبتها، ستأتيك، فقط اطلبها بقلب واثق من عظمة الله!

شرد محمد بناظريه نحو البعيد وكأنه دعا الله بقلب صادق.

جاء المساء واجتمع الأقارب والأحبة بليلة عيد يرأسها جدّي

بروعته وحنيّته، ومحمد في الغرفة مصاب بغيبوبة حبّ شهية، حزنت عليه فلم يرغب بتناول شيء وبقيت أدور حوله كنحلة مزعجة!

خرجت بعد أن أيقنت أن مزاجه لن يتعدل، فكانت الصدمة أنني رأيت فتاة المجرّة مع جارتنا قادمة، جارتنا تسلم على جدتي وتقول لها: هذه ابنة أخي ثريا، وقد جاءت لتمضية العيد معنا!

ثرياااا، صرخت وتلعثمت وقلت لها: أنتِ المجرّة! ضحكت وتذكرتني.

ركضت لجدّي وقلت له أتت... أتت... غمز لي أن أتأدب، وركضت نحو محمد وأمسكت يده وسحبته وقلت له: الثريا هنا..

قال لي: أجننت فايدة؟!

قلت له: فقط انظر.

نظر وفقد النطق لفترة، نظر للسماء وقال الحمد لله.

لقد أتاه الحبّ طارقا بابه.

لقد نشأت علاقة حبّ نقية بينهما، كنت فيها الوسيط بينهما! ولم يكن جمال الشكل هو من جعله يتعلق بها فقد كانت طيبة حنونة خلوقة بحق. وتقدم لخطبتها بعد شهرين.

وأذكر يوم حفل زفافهما، أنه طلب من مسؤولي قاعة الحفل أن تكون الأنوار فيها كالفضاء والمجرّة تخليدا لصدفة لقائهما،

وقد طلبا مني الرقص بصحبتهما وهذا شيء لم أفعله، لقد اكتفيت بمشاهدة الأنوار، وسرحت نحو عالم من الجمال ما زلت أعيش فيه للآن.

اطلبوا الخير وتيقنوا بأنه آت لكم، وحاذِروا من التشاؤم والتفكير في السلبيات، فإنك إن كنت مريضا وفكرت بتدهور صحتك أكثر سينجذب جسدك لتفكيرك وتسوء عافيتك، و إنك إن كنت مريضا وتفاءلت بالشفاء، سينجذب جسدك وجهاز المناعة لديك وستتماثل للعافية.

فقط كونوا للخير مغناطيسا.

خبايا الأرحام

لا تخفوا ما في الأرحام، أعتقد أنه أمر واضح، ولكن الخلل في استيعابنا للأوامر وكأننا من الحمقى الذين نتبع قاعدة خالِف تُعْرَف، مخالفة الأوامر تدمير شامل لحياة الكثيرين أحيانا دون أن تعلم، فأنت لا تعيش في هذا العالم منعزلا عن مجتمعك شئت أم أبيت.

لم أعاصر هذه القصة ولم أكن وجدّي إحدى شخصياتها ولكنه رواها لي –رحمه الله– بعد أن رأيته يوبخ إحدى النساء، حيث كانت تحرض ابنتها المنفصلة حديثا عن زوجها بأن تخفي حملها عنه كمدا به وتنكيلا، إذ ثبت حملها منه بعد شهر على فراقهما، وطال حديثه مع المرأة ولا أعلم فحواه، كل ما أعلمه أنني سألته لماذا وبختها؟

فأجاب: لقد خالفت شرع الله فهذا الطفل لها وله، كما أنه ليس من حقها حرمان طليقها من أبوة صغيره أو صغيرته، علاوة على أن إخفاء ما في الأرحام هو مدعاة للفتن وإثارة الشكوك واختلاط الأنساب...

كنت في السابعة عشرة من عمري ومدركة لكلامه، وكلّ ما أردت التعمق فيه هو تركيب (اختلاط الأنساب)...

للعلم لست مفتية ولا عالمة حتى لا يتفلسف أحدهم ويقول ما لا يُقال من تصيّد وحماقات، فقط أنقل ما رأيته أو سمعته أو عشته بعد التأكد من صوابه لعلّ وعسى أن يكون فيه نفع ولو بمقدار حبة خردل.

كنت قد كبرت وأصبحت فتاة واعية مدركة لحُسن الأدب والسؤال، فاستأذنته قائلة هل لك أن تخبرني أكثر عن هذا الأمر. في تلك الفترة من حياتي كنت وجدّي رأسا وكتفا يسند بعضنا الآخر تارة هو الرأس وتارة هو الكتف؛ لأن جدتي رحمها الله كانت قد توارت تحت التراب، وفارقتنا بجسدها الطاهر.

كان الحديث يؤنسنا رغم أن كل ما في الكون لم يساعدنا على تجاوز فقدها، إذ أن الفقد بفعل الموت رهيب جدا، أعلم أن الموت حق وحقيقة، ولكن الأمر ليس في كونه حقا أو لا، فهذا مفروغ منه، إنما في قدرتنا على تحمل الشوق لأحد لن يعود يوما.

نظر لي بدفء وقال: تخيلي يا فايدة أن تحبي أحدا وتكتشفي أنه أخوك! عندها ستفقدينه مرتين، مرة كحبيب ومرة كأخ، والسبب في ذلك تعنت امرأة حمقاء، وإخفائها لما في رحمها بعد انفصالها عن زوجها ظنا منها أنها تنتقم أو تطوي الماضي، لتتزوج من آخر وتنسب ما في رحمها له.

جريمة فادحة جعلت فتاة من لبنان تشنق نفسها بعد أن اكتشفت أنها متزوجة من والدها سعودي الجنسية والبالغ من العمر 47 بينما كانت في 25 والطامة أنه أنجب منها.

فتحت فمي، وسألت كيف؟ كيف؟ فقال لقد سمعت ذلك في أحد أسفراي لزيارة بيت الله الحرام.

سافر هذا الرجل وهو في بداية العشرين إلى لبنان والتقى فتاة هناك ليتزوجها دون علم أهله، واعدًا إياها أنه سيعلن زواجهما...

لكنه عاد لوطنه بعد أن طلقها فجأة بحجة أن أهله عارضوا هذا الزواج دون أن يعلم أنها تحمل صغيرته في رحمها. مما جعلها تخفي حملها انتقاما منه لتتعرف على شاب لبناني بعد 6 أشهر رأف لحالها وتزوجها فنسبت الطفلة له، لتموت بعد 10 سنوات دون أن تخبر صغيرتها من والدها الحقيقي.

تتلاقف أمواج الحياة هذه الفتاة لتجعلها ترضى بالزواج سرا من رجل سعودي ثري أربعيني لم تعلم أنه والدها، و أنجبت منه طفلين ليشاء الله أن يرى الزوج صورة لأمها فيسألها من هذه فتخبره بأنها أمها، فينصدم ويطلب لقاء زوج أمها بعد أن ساوره شك دعاه للجنون.

يؤكد زوج الأم بأن الصغيرة ليست ابنته.

يحللان DNA ليكتشف أنه متزوج من صغيرته.

بكيت وقلت رباااه، الطف بنا.

لم يكن وقتها جدي على إحاطة بـDNA فشرحت له عن الأمر أكثر لأنه عندما لفظه وجد صعوبة في ذلك.

الفتاة لم تستطع تحمل الصدمة فشنقت نفسها، أما الأب والأطفال لم يعلم أحد حقيقة مصيرهم.

السؤال هل الأم مرتاحة في قبرها؟

اللهم ارض عنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم!

السؤال الآخر لأولئك الذين يظنون الزواج متعة أو تجربة أو نزوة. تبا لكم وألف تب، هل أنتم راضون عن أنفسكم؟

لا أعلم لم نرى الصواب ونحيد عنه.

كلّ ما أعلمه أنني أملت رأسي برقه على كتف جدي المثقل حزنا على فراق جدتي، و افتخرت بدمه الجاري في عروقي.

على رصيف الصواب امشوا أحبتي، فلن تدهسكم سيارات أخطائكم يوما.

متى يُعْرَفُ الأوفياء؟

لطالما رسخت عبارات جدّي –رحمه الله– في ذهني وجدران ذاكرتي رسوخ الجبال في الأرض، فكم من متحذلق ظنناه صادقا وكم من صامت ظنناه كارها! ستفهمون مقصدي و أنتم تغوصون معي في طهر الأجداد، طهر أتوق له ولزمن رحل مع رحيلك جدّي الحبيب.

أمجد شاب أنهى دراسته الجامعية ويعمل محاميا، أحب لين وهي قريبة له من طرف والده، عشقها مذ لحَظَها في حفلة زفاف وهام بها وهامت به، وهنا بدأت معاناته لأن أمه لا تحب أمها وأمها تبادلها الكره ذاته، وكأنهما داحس والغبراء.

حقد النساء المؤصل والذي إن عدت لجذور أسبابه تجدها أتفه من التفاهة ذاتها، إما غيرة أو خلاف يستحي العاقل عن ذكره، أعلنت أم أمجد حربا حامية الوطيس على أمجد ووالده إن أتمّا الزواج دون رغبتها، وكذلك أم لين.

ثلاث سنوات وأمجد يحاول جاهدا الظفر بلين حتى شاء القدر أن يتدخل أهل الصلح والخير، وتتم الموافقة على زواجهما. وتفاديا للمشاكل سكن أمجد ولين بعيدا عن أهليهما لينعما براحة دون تدخلات الأهل الهادمة أغلب الأحيان.

سكنا جارَيْن لنا، كنت أتأملهما، كيف يمسك يدها يسندها وهي حامل وألمح الحب في عينيها له، ولكن وربي المعبود لم أرتح لأمجد، هكذا دون سبب وكان جدّي يعلم بذلك، لأنني أتقوقع حول نفسي كلما رأيته، وأمقته دون أن أعرفه.

نعم، كنت مخطئة وكان جدّي يوبخني بشدة على شعوري هذا، ولكنني كنت أجيبه أن الأمر ليس بيدي، فقط أشعر أنه ممثل يا جدّي. فيوبخني أكثر ويقول: استغفري. استغفري فلا يعلم القلوب إلا خالقها.

أنجبت لين فتاة جميلة اسمها سجود، وكبرتُ عاما و أنا أرى سجود تكمل عامها الأول. ولين توشك أن تلد طفلها الثاني فقد حملت بعد ثلاثة أشهر من ولادتها لسجود.

حتى شاع الأمر أنها حامل بتوأم وكنا نترقب ولادتها لنعلم جنس التوأمين وشكلهما... ورغم كلّ هذا عجزت عن استلطاف أمجد. حتى أمسكني جدّي يوما وقال لي: ما قضيتك مع أمجد؟

قلت له: لا أعلم، فقط لا أشعر بأن عينيه وفيتين، سامحني يا جدّي لربما أنا ظالمة له، ولكنني أرى حبا ودفئا وحزنا في عينيها، وأرى مكرا في عينيه وخيانة... فابتسم جدّي ووضع يديه على كتفي وقال: متى يُعرَفُ الأوفياء يا فايدة؟

لم أستطع إجابته، وتعلقت به أريد إجابة دون أن أعلم أن إجابته ستصبح دستوري في هذه الحياة لأقيس بها من يحبني بصدق عمن كذب على نفسه بحبه لي في كل العلاقات.

أجابني (يُعرَف الأوفياء يا فايدة بعد الفقد والفراق والبعد، فمن ظل على عهده فهو وفي. ومن لم يبق على عهده لن نستطيع تصنيفه بأنه خائن، ولكن نكتفي بالقول بأنه ليس وفيا).

توشك لين على الولادة فهي في شهرها التاسع. لم أشهد ما حدث لها، ولكنني سأصفه كما سمعته من قلوب رثتها فقد كانت من خيرة الفتيات.

غادرت لين عملها وهي في شهرها التاسع، توجهت للحضانة لإحضار سجود، ثم وقفت على الرصيف تنتظر أمجد، ليأتي سائق صهريج أهوج مسرع فيضربها هي وسجود بقوة مصطدما بهما، بطنها البارز جعل القلوب تضاعف من قشعريرتها، راحت الأم تبعد سجود جانبا وتتلقف الصدمة كلها فتُلقَى على الأرض ببطن نازفة، بينما الفتاة تنجو من الموت وتبقى بيد مكسورة تصرخ: ماما.. ماما..

يصل الإسعاف ويُحمَل جسد لين الطاهر دون أن يعلموا بأنها تودع هذا العالم في رمقها الأخير هي وتوأمها.

تُدخل غرفة العمليات لولادة قيصرية مستعجلة نتيجتها كانت إخراج أحمد ومحمد ميتين من رحمها لتفارق الحياة هي أيضا –رحمها الله– أثناء العملية.

قصة أبكت جدّي والجميع، ضجّت أصداؤها آنذاك، فقد قُتلت أم وتوأماها على يد سائق أهوج.

أما سجود فقد أصيبت بكدمات ورضوض وكسر في يدها علاوة عن مشهد قتل أمها أمامها الذي أظن أنها لن تنساه ما حييت.

تم تسمية التوأمين وفق سنة رسولنا العظيم –صلى الله عليه وسلم– استعدادا لدفنهما وأمهما.

كلّ من حضر الجنازة ومنهم جدّي شهد بأن أمجد نزل في قبرها يرمي التراب على نفسه ويصرخ أحبك، ارجعي ارجعي حتى نزعه كبار الرجال من القبر عنوة.

الكلّ بدأ يتحدث عن حبه لها، وكيف رمى بنفسه القبر وراءها... لكنني أعود بنفسي وبكم لقول جدّي الغالي.

الوفاء ليس مظهرا، بل هو ما وقر في القلب وصادقه العقل والجسد من فعل نحو من نحب.

الطريف في الأمر بأن أمجد ثبتت علاقته بأختها. نعم، أختها وأنهما كانا يحبان بعضهما، ولا نعلم هل اكتشفت لين ذلك أم لا، ولعلّ موتها رحمة من الله بها.

لقد فُضِح الأمر بعد تقدم أمجد لخطبة أختها (وعد) بعد شهر فقط على دفن لين بحجة أنه يريد أما حنونا لسجود، ولن يجد أفضل من خالتها. ولكن أم لين رفضت فكرة أن تتزوج ابنتها من زوج ابنتها الميتة منذ شهر، لتثور وعد محتجة (أنا أحبه وهو يحبني والله موّت لين لينصف حبنا! مما جعل الأم تتعرض

لسكتة قلبية؛ نجت منها بعد فترة، ولكن للأسف خرجت وعد عن طوع أهلها، وتزوجت أمجد، والمضحك أكثر أنها رفضت تربية سجود بحجة أنها تذكرها بطيف أختها).

سجود الآن تعيش بين جدتيها أم والدها وأم أمها اللتين توحدتا على حبها، أما أمجد ووعد فقد تركا الأردن بحجة عدم تفهم المجتمع لحبهما. لا أعلم الغيب، ولكنني أظنهما لن يعيشا سعيدين وطيف تلك البريئة يلاحقهما.

أذكر أنني عندما سمعت بخيانته لزوجته و أنه على علاقة بأختها أثناء حياتها؛ كنت أقف على شرفة منزل جدي في يوم خريفي يحمل هواء باردا معه ليأتي جدّي، ويضع فروته على كتفيّ ويقول: ما دام قلبك يخبرك بسرّ العيون ووفائها فلا تحبي شخصا لم يرتح قلبك لعينيه، فقد صدقت ورب الكعبة.

أقرب الناس لي يعلمون أنني فعلا أتجنب أي شخص لم أشعر بالأمان نحو عينيه.

الوفاء يا أنتَ ويا أنتِ هو أن تحفظونني في حضوري وغيابي ولا تخذلوا قلبي يوما.

فهرس الكتاب

إهداء 5
مقدمة الكتاب 7
كلمة المؤلف 9
سَلَطَة جدي 11
شهم 15
رفقا بالقوارير 19
سليمى 22
حناء 26
توبة 29
العثماني 33
عدنان ولينا 37
بوم 40
(شلة حسبو) 44
صدفة 48
الكلمة الطيبة 52
غيرة 57
حمام زاجل 62
طبيب قلبي 67
جمال الروح 70
قاموس الضعفاء 75
ليالي جدي 79
خفافيش 83

بنفسجية 86
البنات 90
إرادة 95
غزال 98
حنان 104
عجائب 106
انتهت أيامنا 110
شجاع 115
لن تندم إن قرأتها 122
عادات حمقاء 130
تضحية 135
شؤم 139
نكران المعروف 143
هنا بدأت أكتب! 147
طيف 153
سحر الأرواح 157
أن لا تعلم خير من أن تعلم 160
حماقات 163
الحب مواقف! 167
يا عيني على الحب! 171
قانون الجذب 175
خبايا الأرحام 179
متى يُعْرَفُ الأوفياء؟ 183